

الباب الأول

الدولة الرسمية

عزيزى القارئ : فى هذا الباب أحاول أن أعرض عليك داخل إطار واحد مجموعة من الصور عن الدولة الرسمية . وأنا فى هذا العرض لا أسلك المنهج الذى اعتاده المؤرخون . وإنما أحاول أن أعرض عليك للمشاهد كما أراها أنا ، وكما يقنأونها رسام أو مصور ، لا كما يقنأونها كاتب أو مؤرخ .

وسوف تجدنى أطيل فى بعضها وأختصر فى البعض الآخر . وذلك تبعاً لما يحكم به ذوق الخاص فى تصوّر وتصوير الأشياء . وقد تجدنى أطلت كثيراً فى قضية أبى بكر بن أفلح ورجائى أن تقرأ ذلك بإمعان وأن تستمعين بمصادر أخرى إن شئت ثم تقرر حكمك فى القضية فإن انتهيت إلى ما انتهيت إليه فالحمد لله على التوافق وإن خالفتنى فى رأى فالله أعلم بالحقائق وهو وحده علام الغيوب . واختلاف الرأى لا يفسد للود قضية .

ابن الصغير يرسم صورتين

رسم ابن الصغير صورتين إحداهما للإمام الرستمي والأخرى للدولة الرستمية . فحينما أراد أن يرسم صورة للإمام في الدولة الرستمية قال :

« هو رجل جالس على حصير فوقه جلد وليس في بيته شيء سوى وسادته التي ينام عليها وسيفه ورمحه وفرس مربوط في ناحية من داره » .

« رميت له وسادة من آدم فجلس عليها ينتظر فراغ دفن رجل مات » .
« وكان إذا جلس الناس وأمرهم بالجلوس لم ينطق أحد بين يديه إلا أن تكون ظلامة ترفع إليه وكان زاهدا ورعانا سكا سكيننا » .

« نسا ربهم سيرة جميلة حمدها أولهم وآخرهم ، ولم ينقموا عليه في أحكامه حكما ولا في سيره سيرة ، وسارت بذلك الركبان إلى كل البلدان » .

هذه الصورة التي رسمها ابن الصغير لبعض الأئمة في الدولة الرستمية يصح أن تعبر عن كل واحد منهم مع تغيرات بسيطة لا تقناول جوهر الصورة ولكن الخطوط الجانبية .

أما حينما أراد أن يرسم صورة للدولة الرستمية فقد قال :

« قوى الضعيف ، وانتعش الفقير ، وحسنت أحوالهم وخافهم جميع من اتصل به خبرهم ، - وأمنوا ممن كان يغزوهم ، ثم شرعوا في العمارة والبناء وإحياء الموات وغرس البساتين وإجراء الأنهر واتخاذ الرحاء^(١) وغير ذلك ،

(١) الرحاء جمع رحاء وهي آلة طحن الحبوب قال شاعر الجزائر وشيخ صحافتها رحمه الله ... هم اخترعوا الرحوات بحفاة ينأخازوا الظفر .

واتسعوا في البلد وتفسحوا فيها ، وأنتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصى الأقطار . ليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم ، وابتنى بين أظهرهم ، لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته . وأمانه على نفسه وماله ، حتى لا ترى دار إلا قيل هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري ، وهذه لفلان القروي ، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم ، وهذا مسجد الكوفيين . وهذا مسجد البصريين . »

« والبلد زائدة عمارتها في ذلالت كله والسيرة واحدة وقضاته مختارة وبيوت أمواله ممتلئة وأصحاب شرطته والطائفون به قائمون بما يجب ، وأهل الصدقة على صدقاتهم ، يخرجون في أوان الطعام فيقبضون أعشارهم في هلال كل موسم . »

« ومن أهل الشاة والبعر يقبضون ما يجب على أهل الصدقات لا يظلمون ولا يظلمون . »

« ثم أمر قومًا في نفوسة يمشون في الأسواق فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فإن رأوا قصابًا ينفخ في شاة عاتبه ، وإن رأوا دابة حمل عليها فوق طاقتها أنزلوا حملها وأمروا صاحبها بالتخفيف عنها ، وإن رأوا قذرًا في الطريق أمروا من حول الموضع أن يكنسه ولا يمنعون أحدًا من الصلاة في مساجدهم ولا يكشفون عن حاله ولو رأوه رافعًا يديه . »

« وكانت خطبهم على المنابر خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . »
« إن قضاته وأصحاب بيت أمواله وأصحاب شرطته ومن بالبلد من فقهاء الإباضية وغيرهم لم يطالب بعضهم بعضًا ولا سعى بعضهم ببعض وكانت مساجدهم عامرة وجامعهم يحتمون فيه ، وخطيبهم لا ينكرون عليه شيئًا . »

إلا أن الفقهاء تناجت بالمسائل فيما بينهم وتناظرت ، واشتهت كل فرقة أن تعلم ما خلفتها فيها عاقبتها ومن أتى إلى خلق الإباضية من غيرهم قربوه ، وناظروه ألطف مناظرة ، وكذلك من أتى من الإباضية إلى خلق غيرهم كان سبيله كذلك .

أحسب أن هاتين الصورتين اللتين رسمهما ابن الصغير بقلمه البليغ ، كافتتان لإيضاح ما نرمى إليه أوروبما كانتا خلاصة هذه المباحث الطويلة في هذا الكتاب الثقيل فللمستعجل أن يكتفى بهما عن باقي الفصول . وابن الصغير كما يعلم القارىء الكريم معاصر لهذه الدولة وهو مخالف لها في المذهب وقد صرح في كتابه أنه يبغضها لأنها على غير مذهبه ، ولكنه مع بغضه لها لا ينكر الحقائق التي يعرفها وشاهدها وهو يقول ذلك بصراحة وقوة فاستمع إليه :-

« وأنا اتحرى فيها الصدق ، ولا أحرفها عن معناها ، ولا أزيد فيها ولا أنقص منها إذ النقص في الخبر والزيادة فيه ليس من شيم ذوى المروءات ، ولا من أخلاق ذوى الديانات ، وإن كنا للقوم مبغضين ، وليسيرهم كارهين . »

دخول المذهب الإباضى إلى الجزائر

في سنة ١٩٦٥م قمت بجولة سريعة في الجزائر . وكنت يوماً في مجلس محاضرة العلامة الشيخ يوسف العطاوى ، وكنت أتحدث عن المذهب الإباضى فقلت :

« إن المذهب الإباضى دخل إلى الجزائر في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثانى مع تلاميذ الإمام جابر بن زيد نفسه ، ومنهم سلمة بن سعد الذى طاف بجميع بلاد المغرب الإسلامى واستطاع أن يكون بعثة علمية في المغربين الأدنى والأوسط تحمل العلم من العراق وتسير به مع الشمس » .

وصبر الشيخ حتى أتممت كلامى ثم قال : إن هذا الكلام غير صحيح فإن المذهب الإباضى إنما دخل الجزائر مع الفاتحين ، لأن الإباضية ليس فيها شيء غير ما في الإسلام الذى جاء به الفاتحون الأولون الصادقون .

وعندما تقول إن المذهب دخل بتاريخ كذا فإن قولك هذا يشعر بأن المذهب شيء آخر غير الإسلام ، أو إنه يحمل شيئاً لم يكن في الاندفاع الأولى التى حلت الإسلام إلى هذا المغرب بصفاته وتقائه .

والحقيقة إن الإباضية هى الإسلام حافظ عليه من تسموا بهذا الاسم . فلما انحرف منحرفون عن الإسلام ، إما بالقول ، وإما بالعمل ، وإما بالعقيدة ، وإما بها جميعاً ، وقف أولئك الناس يردون ما يراد إدخاله إلى دين الله من الأباطيل ، فصورتهم السياسة الماكرة بصورة حزب أو مذهب أو كتلة أو ما شئت من أسماء ، وحاولت أن نجعلهم حركة منفصلة قائمة بنفسها ،

بينما هي في الواقع مازالت تلك الاندفاع المشرقة الأولى التي جاءت تحمل دين الله كما بلغه رسول الله ﷺ .

وصمت الشيخ الوقور بعد أن أبدى لي هذه الملاحظة القيمة .

فسكرت في ملاحظة الشيخ فوجدت فيها كثيراً من الحق والواقع ، فلاشك أن حملة الإسلام في اندفاعهم الأولى كانوا يدعون الناس إلى اعتناق الإسلام ، وكانوا هم أنفسهم يمثلون الإسلام . فلما انحرف بعد ذلك منحرفون بدين الله تفرقت جهود الأمة الداعية إلى دين الله وسلك الدعاة سبلاً مختلفة . ففهم من استمر يدعو البعداء عن الإسلام إلى الدخول في الإسلام لا يبالى ما عليه الناس داخل الأمة ، ومنهم من رجع يدعو المنحرفين ويطالبهم - بإلحاح - أن يتقيدوا بالمنهاج الذي رسمه دين الله . وأن يلتزموا بأحكامه وشرائعه ، ومنهم من اشتط في هذه الدعوة ، فعلا حتى سلك المنحرفين بدين الله في سلك واحد مع الخارجين عليه ، وجاء المؤرخون الذين يسرون في ركاب الحكام المنحرفين ، يعملون لهم عمل الصحافة الموجهة فأخذوا يسبقون الأسماء والألقاب على كل من جهر بالدعوة إلى التمسك بالحق والعمل في سبيله ، وينسبون إليهم كل مامن شأنه أن يثير عليهم الناس ، ويظهرهم بمظهر طائفة شاذة منفصلة عن الأمة ، منعزلة بنفسها .

وجاء من بعدهم الكتاب ، سواء كانوا كتاب العقائد أو كتاب المقالات التاريخية فاعتمدوا على أولئك المؤرخين ، واعتبروهم حجة ومصدراً وسهلاً لديهم أن يقال إن الطائفة الفلانية تعتقد كذا ، وتدين بكذا ، وعملت كذا وكذا . دون الرجوع إلى تلك الطائفة وأصول مذهبها . وقد يعمد بعضهم إلى سلوك فرد أو أفراد في طائفة من الطوائف . فيعتبرونه أصلاً ورأيًا

لتملك الطائفة ، ولو كانت تلك الطائفة غير راضية عنه ولا عاملة به ، لاسيما وأن آراء المخالفين للحكام ، والداعين لهم إلى التزام الإسلام في الأحكام ، لم يتح لها الانتشار بصورتها الحقيقية المجردة . وإنما قلبت فيها الحقائق ، وأضيف إليها كثير في الأباطيل ، لكي تصل إلى الناس مكروهة أما كتبهم التي قد تكون صورة صحيحة أو قريبة من الصحة ، فقد حوربت بدون هوادة ، وحيل بينها وبين البلوغ إلى الناس بكل وسيلة ، وأحرق منها الكثير ، وحرف منها البعض وكان يكفي في نظر الحكام الظالمين ، أن يقوم الناس بنقد سلوكهم ، أو مطالبتهم بالعدل والاستمسك بدين الله . حتى توضع لأولئك الناس أسماء فرقة تعزلهم عن المجتمع الإسلامي ، وتصورهم بشناعة ، وتظهرهم بمظهر من يشق عصا الطاعة ، ويحدث في الدين ما لم يكن منه ، وينشق عن الأمة ويفرق كلمتها ، وحتى يجد أولئك الحكام سنداً لمحاربتهم والقضاء عليهم ومبرراً يحمل جمهور الأمة على كراحتهم دون أن يعرف من حقيقة قمتهم أو الدوافع إلى كراحتهم ومحاربتهم شيئاً .

وقد استمر الإباضية إلا النزر اليسير - على المنهاج الإسلامي النظيف يحافظون عليه في أنفسهم ، ويأملون من غيرهم أن يحافظ عليه ، ويدعون أولياء الأمر ممن في أيديهم شئون الأمة أن يراعوا حق الله فيها ، وأن يؤدوا الأمانة التي جعلها الله في أعناقهم كما أرادها الله .

ونستطيع أن نعتبر مسلمك الإباضية في الجزائر سائراً على منهجين واضحين :

١ - الأول : استمسكهم بالواضح من دين الله والعمل به والحرص عليه ، والالتزام سيره وآدابه في تشدد يبلغ الجمود أحياناً . ودعوة المسلمين إلى تلك (٢ - الإباضية)

المحافظة وه طالبة الفاتحين على الحكم منهم ومن غيرهم ، بمراعاة شريعة الله فيما يفعلون وفيما يذرون .

٢ — الثاني : الحرص على الجهاد المقدس ، والكفاح في سبيل الله .
سواء كان ذلك الجهاد لتأمين الدعوة في البلاد التي يفتحها المسلمون . أو في الدفاع عن البلاد الإسلامية التي يحاربها المشركون .

والشواهد على هذين الاتجاهين في تاريخ الإباضية كثيرة متعددة ، ويستطيع القارئ الكريم أن يجد صوراً من ذلك في الحلقات السابقة من هذا الكتاب وفي غيره من الكتب ، وقد نعرض في هذا الكتاب صوراً لكلا الاتجاهين في حياة الإباضية في الجزائر .

ولعل مسلك الأمة في هذين الاتجاهين هي الصورة التي نجدها للأمة المسلمة عندما بدأ فيها الانحراف عن سبيل الله ، فبينما كانت جموع منها توالى الفتوح إلى الشرق والغرب لتأمين الدعوة كانت أصوات كبار الصحابة والتابعين تنتقد الانحراف عن دين الله وتطالب بالرجوع إلى ما عرف من سيرة المؤمنين الصادقين .

وهذا المعنى هو ما حمل الشيخ يوسف العطفراوي على إبداء ملاحظته السابقة .

فإذا كان الإباضية يستمسكون بدين الله كما عرف عن رسول الله ﷺ وكانوا يسرون بسيرة خير القرون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر داخل أمة الإجابة ، ويحاضرون بأمورهم وأنفسهم في سبيل الله لتبليغ رسالة الله ، فإن تاريخ دخولهم إلى الجزائر يكون هو تاريخ دخول الإسلام إليها .

وعلى هذا فيكون دخول المذهب الإباضى إلى الجزائر ما بين الخمسين والستين من الهجرة وهو التاريخ الذى بدأت فيه الفتوح الإسلامية الدخول إلى الجزائر. وهذا بناء على ملاحظة الشيخ يوسف السابقة أما بالنظر إلى ما يراه أكثر المؤرخين وكتاب مقالات العقائد ، وباعتبار أن الإباضية مذهب إسلامى كغيره من المذاهب له قواعده وأصوله وفروعه المختصة به فإن دخوله إلى الجزائر يكون فى أواخر القرن الأول الهجرى وأوائل الثانى ، وأظهر الشخصيات التى ظهرت على مسرح الدعوة له فى ذلك الحين هو سلمة بن سعد كما ذكرنا غير مرة ومن بعده حملة العلم .

وبينهم عبد الحميد بن مغطير وربما غيره ممن لم نعرفه .

بعثة علمية

لقد اخترت أن أستعمل في هذا العنوان كلمة (بعثة علمية) وإن كان هذا الاستعمال إنما حدث في هذه العصور المتأخرة التي تعتنى فيها الدول والهيئات بإرسال طلاب العلم إلى مكان العلم . أما في ذلك العهد الذي أكتب عنه فلم يكن هذا الاستعمال الغوى معروفاً . ذلك أن الرغبة في طلب العلم هي أمنية كل نفس في ذلك الحين . وكان الارتحال في طلب العلم هو "فرض" الثاني للشباب المسلم في عملية الجهاد في سبيل الله ، ولهذا فقد اختار القرآن الكريم لهذا المعنى كلمة تدل على الصبر والكفاح والجلد . تلك الصفات التي يتطلبها الجهاد في كلا الميدانين . فقد قال تعالى في سورة التوبة ما يلي :

﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، قلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾^(١) .

فقد استعمل كلمة نفَرَ في الاستعداد والاندفاع إلى الحرب كما استعملها في الاستعداد والارتحال إلى طلب العلم . والذي يدفع المسلم في ذلك الحين إلى ميدان القتال ، أو إلى معاهد العلم إنما هو الباعث النفسي للقيام بالواجب في حماية الدعوة وتأمينها من عدوان السلاح أو حمايتها وتأمينها من عدوان الجهل . فالجهاد في سبيل الله إنما يقوم بواجب لا ينتظر عليه أجراً يدفع إليه من الناس ، وطالب العلم لا ينتظر نفقة تصرفها دولة أو تمدد بها جمعية أو هيئة .

ولهذا الفرق بين طلاب العلم أمس واليوم رأيت أن أوضح للقارىء الكريم أن اختياري لاستعمال كلمة بعثة علمية على طلاب العلم في ذلك الحين فيه كثير من التجوز والذي يَسْرُلى أن أسمى الطلاب الذين سافروا من المغرب الإسلامى إلى المشرق الإسلامى لطلب العلم بجهودهم الخاصة - بعثة علمية - ليس هو التشابه فى الحياة التى تحياها البعثات العلمية التى ترعاها الدولة والهيئات اليوم . بحياة البعثات العلمية التى تقوم على الجهود الفردى فى ذلك الحين ، وإنما لأن هذه البعثة تكونت بأسلوب شبيه بأسلوب تكوين البعثات اليوم ولبيان ذلك يحسن بنا أن نعود إلى إعادة بعض ما سبق أن تحدثنا عنه فى الحلقات السابقة فى هذا الكتاب .

كان سلمة بن سعد الذى تحدثنا عنه غير مرة فيما مضى ، من أنشط الدعاة إلى الاستمسك بدين الله ، كما أخذه من كبار التابعين أو بعض تلاميذهم . وكان يندد بأعمال الظالمين والمستبدين ، لا يفتر ولا يسكت ولا يقر فى مكان ، ولم يكن سلمة الرجل الوحيد الساخط على الوضع .

فقد كانت النقمة على الانحراف بالحكم ، نعم العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه غير فئة قليلة من المنتفعين بالوضع ، والمغترين بالجاه والمنصب ، وكان علماء الأمة فى هذا الصدد ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

١ - قسم غير راض عن الوضع فهو ينتقد ، وينقم عليه ، ولكنه فى نفس الوقت يقف منه موقفاً مسالماً ، لا يجهر بالقمة ، ولا يدعو إلى الثورة ، خوفاً من فتنة تضر بالأمة أكثر مما تصلح ، واشتت منها أكثر مما تجمع .

٢ - وقسم هو الآخر غير راض عن الوضع فهو ينتقد الانحراف ،

ويطالب بتنفيذ أحكام الله ، والاستمسك بشريعته ، ولكن دون دعوة إلى ثورة تؤدي إلى فتنة جاحشة .

فإن من جانب الفتنة وتأكد للدعاة أن الثورة تكون في مصلحة الأمة ، وأن نتائجها الحسنة مضمونة فإنهم حينئذ يطالبون الأمة بالثورة والنضال على الفساد وإلا فإنهم يكتفون بأن يقفوا موقف الباقدين الصريح الذي لا يسكت عن منكر ولكنه لا يرفع سيفاً ، وهذا رأى الإباضية ولذلك سموا أنفسهم أهل الدعوة فهم لا ينفكون عن الدعوة إلى الحق مهما اختلفت الظروف ولا يتجاوزونها إلى حمل السلاح إلا إذا كان ذلك لا يؤدي إلى فتنة تفسر بالأمة .

٣ — أما القسم الثالث فقد كان ينتقد الانحراف ويدعو إلى الثورة غير ناظر إلى نتائجها وما تسفر عنه ، ولا مقدر لعواقبها وما ينبئ عليها .

ولعل علماء الأمة يكادون يجمعون على أن الحكم بعد الخلافة الرشيدة قد انحرف عن مجراه الطبيعي في النظام الإسلامي ، باستثناء خلافة سيدنا عمر بن عبد العزيز .

ولكنهم رغم اتفاقهم أن الحكم قد انحرف ، فقد اختلفوا في معالجة هذا الانحراف حسب شخصياتهم وقربهم وبعدهم من الحكم وفهمهم للإسلام ، وحرصهم على وحدة الكلمة ومقانة الصف واهتمامهم بمال الأمة ودمها ثم بحسب أخلاقهم ونفسياتهم وتصوراتهم لما يحدث وكيف يحدث . فمنهم من يرى وجوب الخضوع للأمر القائم والبر له . حتى تقبل الأمور ومنهم من يرى وجوب الإسراع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتشدد في النقد ، والدعوة إلى الاستعداد على المدى الطويل حتى يصلح الحال أو يأتي الظرف

الذى لا تخشى فيه الثورة ولا تؤدى إلى الإضرار بمصالح الأمة ومنهم من يرى المسارعة إلى الضرب على أيدي العابثين وكف المعتدين بثورة عاجلة دون مصابرة أو انتظار ودون تقدير للنقائج ولا نما ينال الأمة بعد ذلك .

وكان سلمة في الفريق الثانى من أولئك الذين يرون أنه يجب على المسلمين أن ينتقدوا الانحراف وأن ينهوا عن المنكر ، ولكنه لا يتعجل بالثورة ولا يدعو إلى رفع السلاح إلا حينما يكون ذلك فى مصلحة الأمة بالتأكيد . ولا ينجم عنه شر أكبر .

وكان يرى أنه لى تفهم جماهير الأمة هذا فلا بد من وجود نواىع من العلماء الذين يفهمون أسرار الشريعة فلا يخذعون بالطمع فى مظاهر الدنيا ، ولا تجوز عليهم الحيل التى يلجأ إليها أنصار الحكم القائم ، وصبغه بالشرعية القائمة ووجوب الطاعة ، بتحريف معانى نصوص كريمة . ولذلك فلم يكن يدعو إلى الثورة وهو يحوب البلاد من العراق إلى المغرب الإسلامى . وإنما كان يتصر عمله على ناحيتين :

الناحية الأولى : أن يبين للناس - لاسيما فى المغرب الإسلامى حيث لم يستقر كبار العلماء ، ولم يتمكنوا بعد من إيضاح دين الله - أن ما يرون فى سلوك الأفراد الحاكمين ليس هو ما جاء فى دين الله ، وأن هؤلاء الحكماء قد خالفوا أمر الله فى عباد الله وأموالهم ودمائهم ، وأنه يجب على أفراد الأمة أن يستمسكوا بدين الله وأن يعملوا به فى أنفسهم ، فإن صانوه فى أنفسهم صانهم فى نظامهم .

الناحية الثانية : كان يتخير الشباب الذين يتوسم فيهم الصفاء والذكاء والنبوغ ويدعوهم إلى السفر إلى المشرق لاستكمال دراساتهم على كبار تابعى

التابعين الذين كانت تمتلئ بهم العواصم الإسلامية في المشرق وقد استطاع أن يرسل الفوج الأول من تلميذ واحد إلى البصرة ، ثم استطاع أن يكون بعثة من أربعة طلاب أحدهم من ليبيا واثنان من تونس والرابع من الجزائر .

واستمر سلمة يدعو إلى التفقه في دين الله وفهمه فهماً صحيحاً من المؤمنين الصادقين وكان يدعو الناس إلى السفر إلى منازل الوحي وإلى مراعاة الإسلام حيث ثبت واستقر في قلوب المؤمنين وانعكس على سلوكهم فكانوا مظهرًا حقيقياً له .

ونجحت البعثة العلمية التي كونها سلمة بن سعد فأخذت العلم والدين والخلق عن كبار تلاميذ التابعين ، وفهموا الإسلام بنظمه وقوانينه وشرائعه لحياة الإنسان وتنظيماته لسلوكهم أفراداً ومجتمعات .

ورجع أفراد تلك البعثة إلى بلدانهم ، وكان عاصم السدراتي يمثل الجزائر في هذه البعثة التي رجعت إلى أوطانها فبدأ الكفاح في سبيل الله في جميع الميادين .

الدولة الرستمية

من أراد أن يقرأ أخبار الدولة الرستمية وتاريخها الفصل ، فعليه أن يرجع إلى ما ألف عنها خصيصاً في القديم والحديث ، كتاريخ ابن الصغير المالكي في القديم والأزهار الرياضية للبasha الباروني ، وتاريخ المغرب للأستاذ دبوز ، أو يرجع إلى ما كتب عنها ضمن الأبحاث التاريخية في الكتب العامة . أما في هذا الكتاب فليست أتناولها إلا بمقدار ما تكتمل به الصورة التي أريد أن أعرضها على القارئ الكريم في تاريخ الإباضية في الجزائر . على أن على في هذا المقام لا يتجاوز حمل الحامل التي توضع فيه الصورة والاتجاه الذي توجه إليه عند العرض . أما رسم الصورة نفسها وتلوينها فسوف أتركها لغيري من المؤرخين الذين يرسمون أحداث التاريخ ووقائعه بدقة وبراعة .

يقول الأستاذ عثمان السكاك في كتابه القيم موجز التاريخ العام للجزائر صفحة ١٧٠ ما يلي : « فكانت دولة قوية عزيزة ، ذات بأس وسلطان عاصرت بني الأغلب بإفريقيا والأدارسة بالمغرب الأقصى ، وكانت هي الآمرة الفاهية في بلاد المغرب الأوسط » .

ويقول الأستاذ السكاك في نفس الكتاب صفحة ١٨٠ ما يلي :

« يرأس الدولة الرستمية إمام يلقب بأمر المؤمنين ، بيده مقاليدها وتصاريق أمورها وله ترجع السلطات الزمانية والروحية ، وينتخبه وجوه المدينة وزعماء المذهب وشيوخ الدين بحرية من غير مبالاة ولا تقاليد ، ولا ولاء في قرابة أو صداقة أو سلطان ، يراعون فيه المعرفة والدراية والتحنك

والدهاء والعدل والإنصاف يجريهما على نفسه قبل ذوى قرابته ، وعلى ذوى قرابته قبل الحاشية أو عموم السكان . وإن هم رأوا اعوجاجاً قاوموه بالسيف لا بالرفق واللين وأنزلوه من أريكته في غير وجل ولا أسف أو اعتبار .

فنظام الإمامة نظام الجمهورية في أحسن ما يكون في عهد عنقوانها وشبابها وأيام ازدهار أصولها وأحكامها .

وكان الإمام لا يقدم على أمر من أمور الدين إلا بعد مراجعة الشراة وهم زعماء المذهب ، يستشيرهم ويعمل بما قرروا له أن يعمل وإن رأى في ذلك خطأ - وحسبه أن يرفع التبعة عن نفسه بإلقاء المسؤولية على عاتقهم خاصة .

وأما في الأمور العامة في الاجتماع والاقتصاد فكانت المراجعة فيها للخاصة في المدينة ورؤساء القبائل ذات الشأن تستشار في المسائل والأمور بالمساجد بعد الفراغ من الصلاة » .

ويقول الأستاذ الكعك في نفس الكتاب صفحة ١٨٢ ما يلي :

« كانت السلطة العدلية منفصلة عن السلطة المركزية فيما عدا المظالم ، وهي المجلس الأعلى للقضاء ، يجلس لها السلطان لمراجعة القضايا المتظالم فيها وسماع الشكوى حتى من القضاة أنفسهم ، فهي من هذه الوجهة ذات صبغة إدارية أكثر منها عدلية .

يعين الإمام القاضى بعد أخذ رأى الشراة فيه ، وللقضاة دار خاصة بهم تعرف بدار القضاء يجلسون فيها للأحكام . ويتخذون الكتاب والأعوان والقماطر والخواتم . وكانوا على نزاهة تامة وانصاف لا ينافرهم فيه منازع ، وذمة بريئة من كل شائبة من الشوائب .

وقد وردت نواذر في شأنهم في كتب تاريخية مالكية مما يدل على عدم التعصب في ذكر الرواية وصحة النقل .

ويقول الأستاذ السكالك في صفحة ١٨٤ من نفس الكتاب ما يلي :

« ومن كان قد أمعن النظر في شكل الحكومة يراها على أحسن ما يرغب من حيث الأسلوب والنظام . ولو أن التراتيب الإسلامية قد أهملت البلديات التي هي خير كفيل لرقى المدن في دوائرها لأنها مقصورة النظر على منطقة محددة ، تهتم بمصالحها من إنشاء المدارس وبسط الطرقات وإقامة المعامل إلى غير ذلك .

وكان النظام الرسمي خير ما أخرج لتسيير البربر ، وتدير سياستهم بالحزم والعزيمة والرفق والأناة .

وبهذه الطريقة تمكن بنو رستم من ناصية البلاد فجأروا البربر في أهوائهم الجنسية ، ثم لطفوا من شدتها بعوامل إسلامية لينة ، وأظهروا لهم الصلابة كلما اقتضت الأحوال ، على أن لا يتجاوزوا الحدود ، فكانت النتيجة أن البربر نالوا رغباتهم القومية من جهة ودخلوا في الإسلام وحسن إسلامهم إلى حد ما من جهة أخرى حتى أمكن ادماجهم في العائلة الإسلامية الكبرى فيما بعد من غير هضم أو ابتلاع . »

ويقول المؤرخ الجزائري الكبير الأستاذ أحمد توفيق المدني في كتابه القيم كتاب الجزائر صفحة ٢٠ ما يلي :

« فقد كانت الدولة الرسمية أول دولة إسلامية بربرية نشأت في هذه الديار وازدهرت ونمت ، ونالت شهرة عالمية واسعة . »

ويقول في نفس الكتاب ما يلي :

« وأصبحت هذه الدولة البربرية الإسلامية باسطة سلطانها العادل على كل ربوع الجزائر ما عدا ناحية الزاب الأغلبية وناحية تلمسان الإدريسية ، وكان المذهب العام يومئذ للبربر في كل بلاد الدولة هو المذهب الإباضي » .

ويقول في نفس الكتاب :

« أما الدولة فقد كانت مؤسسة على سنن الجمهورية الإسلامية في أيام الخلفاء الراشدين رئيسها يدعى أمير المؤمنين ، ينتخبه القوم في أول الأمر انتخاباً حراً وهو يستشير في كبار الأمور « الشراة » أى عظماء المذهب وعلماءه وفي الأمور العامة يستشير وجوه القوم والقبائل ، والإمام يعين القضاة بعد استشارة « الشراة » وكان قضاة الرستميين على أكبر نصيب من الاستقامة والنزاهة .

وكان الضبط على نوعين : فهناك فرقة الشرطة التى تقوم بالحراسة والسهر على الأمن وهناك فرقة الحسبة التى أسسها الإمام أبو اليقظان وهى مختارة من وجوه القوم وصالحهم تطوف المدينة آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر ، حائرة على الرفق بالحيوان .

وكانت مداخيل الدولة من أموال الزكاة وحدها ، وتصرف فى مصالح الدولة العامة .

وخلاصة القول إنه يحق للجزائر أن ترفع رأسها مفتخرة بهذه الدولة الوطنية التى قلما شاهدت بلاد الإسلام قاطبة مثلها بعد دولة الراشدين .

ويقول الأستاذ يحيى بو عزيز فى كتابه الموجز فى تاريخ الجزائر

« ولقد كان نظام الحكم في هذه الإمارة شورياً ، يطبق أئمتها أحكام القرآن والسنة ، وسعوا جهدهم لإصلاح الأوضاع ، فانتشرت الثقافة العربية بشكل ملحوظ ، كما راجت الأعمال التجارية والفلاحية والعمرانية . وغدت مدينة تيمرت التي جددوا بنائها ووسعوا عمرانها ملتقى القوافل التجارية ، ووفود طلاب العلم » .

الدولة الرستمية صورة للخلافة الرشيدة

في الفقرات التالية التي نقلناها في الفصل السابق عن بعض المؤرخين الذين تحدثوا عن الدولة الرستمية يستطيع القارئ الكريم أن يستخلص صورة قريبة من الحقيقة لتلك الدولة . ولكي نساعد القارئ الكريم على استخلاص تلك الصورة وحصرها في إطار محدود تبدو فيه واضحة المعالم ، نقدم له الخطوط العريضة لذلك كما يلي :

- ١ — يرأس الدولة الرستمية إمام يلقب بأبير المؤمنين .
- ٢ — ينتخب الإمام وجوه المدينة وزعماء المذهب وشيوخ الدين بحرية ، من غير مبالاة ولا تقاليد ، ولا ولاء في قرابة أو صداقة أو سلطان .
- ٣ — يراعون فيه المعرفة والدراية والتجنيك والدهاء والعدل والإنصاف يجريهما على نفسه قبل ذوى قرابته ، وعلى ذوى قرابته قبل الحاشية أو عموم السكان .
- ٤ — إن هم رأوا فيه اعوجاجاً قاوموه بالسيف لا بالرفق واللين ، وأنزلوه من أريكته من غير وجل أو أسف أو اعتبار .
- ٥ — كان الإمام لا يقدم على أمر من أمور الدين إلا بعد مراجعة « الشراة » وهم زعماء المذهب يستشيرهم ويعمل بما قرروا له أن يعمل .
- ٦ — في الأمور العامة : في الاجتماع والاقتصاد كانت المراجعة فيها للنخاسة من المدينة ورؤساء القبائل ذات الشأن .
- ٧ — الاستشارة في المسائل والأمور بالمساجد بعد الفراغ من الصلاة .

٨ — كانت السلطة العدلية منفصلة عن السلطة المركزية فيما عدا المظالم وهي المجلس الأعلى للقضاء يجلس لها السلطان لمراجعة القضايا المتظالم فيها ، وسماع الشكوى حتى من القضاة أنفسهم .

٩ — يعين الإمام القاضى بعد أخذ رأى الشراة فيه .

١٠ — للقضاء دار خاصة يجلس فيها القاضى للأحكام ويتخذ لذلك السكتاب والأعوان والقباطر والأختام .

١١ — كانوا على نزاهة تامة وإنصاف لا ينازعهم فيه منازع وذمة بريئة من كل شائبة .

١٢ — كان النظام الرسمى^(١) خير ما أخرج لتسيير البربر ولتدبير سياستهم بالحزم والعزم والرفق والأناة .

١٣ — أما الدولة فقد كانت مؤسسة على سنن الجمهورية الإسلامية فى أيام الخلفاء الراشدين ، رئيسها يدعى أمير المؤمنين ، ينتخبه القوم فى أول الأمر انتخاباً حراً وهو يستشير فى كبار الأمور « الشراة » .

١٤ — والإمام يعين القضاة بعد استشارة « الشراة » وكان قضاة الرستميين على أكبر نصيب من الاستقامة والنزاهة .

١٥ — كان الضبط فيها على نوعين :

(١) ليس للرستميين فضل فى إخراج النظام وإنما فضلهم فى اتباعه والعمل به والتقيد بأحكامه لأن النظام جاء به الإسلام ووضعه الخالق سبحانه لتسير به البشرية جمعاء فلم يكن خاصاً بالبربر أو العرب أو غيرهم من الأجناس ، وكلما سارت عليه دولة واتبعت فى أجزائه وتفاسيله كانت حرية أن ترضى الله ، ويرضى عنها الناس ، وتسد الأمة التى تديرها ولو استمكنت به الدول الإسلامية فى مختلف عصورها وأمكنها لما نزلت عن مكانها فى قيادة البشرية فى النهج القويم .

(١) فرقة الشرطة وتقوم بالحراسة على الأمن .

(ب) فرقة الحسبة تطوف المدينة آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر .

١٦ — مداخيل الدولة من الزكاة وحدها .

١٧ — يحق للجزائر أن ترفع رأسها مفتخرة بهذه الدولة الوطنية التي قلما شاهدت بلاد الإسلام قاطبة مثلها بعد دولة الراشدين .

١٨ — من كان قد أمعن النظر في شكل الحكومة يراها على أحسن ما يرغب من حيث الأسلوب والنظام .

١٩ — فكانت دولة قوية عزيزة ذات بأس وسلطان .

٢٠ — أصبحت هذه الدولة البربرية الإسلامية بأسطة سلطانها العادل على كل ربوع الجزائر ماعدا ناحية الزاب الأغلبية وناحية تلمسان الإدريسية وكان المذهب العام يومئذ للبربر في كل بلاد الدولة هو المذهب الإباضي .

٢١ — لقد كان نظام الحكم في هذه الإمارة شورياً يطبق أئمتها أحكام القرآن والسنة وسعوا جهدهم لإصلاح الأوضاع .

هذه خطوط عريضة لرسم صورة الدولة الرسومية تعاون عليها ثلاثة من المؤرخين ليسوا من الإباضية هم الأساتذة عثمان السكالك وتوفيق المديني ويحيى بوعزيز . وواضح في هذه الصورة في هذا الإطار أن هذه الدولة كانت صورة ثانية لدولة الخلفاء الراشدين كما قال المديني لأن نظام الحكم فيها شورى يطبق فيه أئمتها أحكام القرآن والسنة كما قال بوعزيز ، بحرية دون مبالاة ولا تقاليد ولا ولاء في قرابة أو صداقة أو سلطان كما قال السكالك .

ولو رجع القاريء الكريم إلى دراسة سيرة الأئمة الحارث بن تلميد

وأبى الخطاب وأبى حاتم الذين كونوا إمامتهم في ليبيا لوجد أن أولئك الأئمة في سيرهم كأئمة الدولة الرسمية كانوا حراساً على العدالة والنزاهة . فما الدبب في ذلك ؟ إذ لا شك أن النظام الإسلامى المحكم واحد في الشرق وفى الغرب ولكل دولة مسلمة . فلماذا امتاز أئمة هذه الدول بهذا الاستمساك بالنظام الإسلامى والحرص عليه أكثر مما تستمسك به الدول الأخرى وتحرص عليه ؟

لا شك أن لذلك سبباً . وقد أوضح الأستاذ عثمان السكعك ذلك السبب فقال :

« ينتخب الإمام وجوه المدينة وزعماء المذهب وشيوخ الدين بحرية ، من غير مبالاة ، ولا تقاليد ولا رلاء في قرابة أو صداقة أو سلطان ، براعون فيه المعرفة والدراية والتحكن والدعاء والعدل والإنصاف يجريهما على نفسه قبل ذوى قرابته وعلى ذوى قرابته قبل الحاشية أو عموم السكان ، وإن هم رأوا فيه اعوجاجاً قوموه بالسيف لا بالرفق واللين وأنزلوه من أريكته من غير وجل أو أسف أو اعتبار » .

فالأسباب التى تفرض على أئمة الإباضية أن يلتزموا السير فى النهج الذى وضعه الإسلام تملخص فى أمرين :

الأول : حسن اختيار الإمام ومن يساعده فى القيام بأعباء الدولة .
الثانى : دوام مراقبته ومحاسبته على أخطائه فإن الإباضية استناداً على قاعدة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وقاعدة الولاية الشخصية والبراءة الشخصية . لا يمكن أن يسكتوا للإمام إذا هو انحرف عن سبيل المؤمنين . بل عليه أن يرجع عن خطئه ويعلن توبته ، ويتحمل تبعه أعماله ونتائجها ، وإلا أنزلوه من أريكته دون وجل أو أسف أو اعتبار .

فالإمام لا بد أن يكون في ولاية المسلمين ليتعاونوا معه وإذا جاز لهم أن يتقوا موقفاً سامياً مع الأئمة والحكام الذين يخالفونهم في المذهب ويختلفون معهم في قاعدة الولاية والبراءة فما يجوز لهم أن يتقوا هذا الموقف السلبي مع الأئمة أو الحكام في مذعبيهم فإن أولئك الأئمة إما أن يكونوا على رضا واستقامة وتجب لهم المساءلة والمؤازرة وإما أن يكونوا على غير ذلك فيجب أن يتعدوا عن مصالح المسلمين وتصريف شئونهم ولو بالعزل إلا إذا تغلبوا بالقوة الغاشمة فيحق البقاء تحت حكمهم تقيّة مع مواصلة الإنكار .

الثورات في الدولة الرستمية

ربما تكون القلاقل والثورات هي الدليل الحى على انحراف الدولة لا سيما في العهود الأولى من الحكم الإسلامى والشعوب بطبيعتها إذا لم تحكم على أحد نمطين فلا بد من أن تهتاج وتثور وتعلن السخط . أما نمطا الحكم اللذان تسكت معهما الشعوب فهما إما العدالة والنزاهة والاستقامة بالمقدار الكامل الذى يرضى عنه الناس وإما الحكم بالحديد والنفار الذى تعطير فيه الرؤوس وتقطع الرقاب لأوهى الأسباب .

والحكم في الدولة الرستمية بإجماع المؤرخين ليس من هذا النوع . ولذلك رأينا أن نعود إلى تاريخها نستخرج منه عدد الثورات في عهد هذه الدولة وأسبابها لنعلم أين نضعها في الدول الإسلامية التى حكمت المسلمين برسم الخلافة .

وإلى القارئ الكريم تلك الثورات حسبما لدينا من مصادر التاريخ الموثوق بها .

أمضى عبد الرحمن بن رستم إحدى عشرة سنة في الإمامة ولم تقم عليه ثورة ولم يرتفع صوت بالإنكار فى أى حكم من أحكامه بل كانت جميع الألسنة تاهج بالثناء عليه والرضا عنه وعن جميع عماله وموظفيه .

وتولى من بعده عبد الوهاب ببيعة جماعية ولم يمس على إمامته سنة حتى كانت الثورة الأولى .

١ - الثورة الأولى : اشتهرت فى كتب التاريخ بثورة النصارى لأن

الذين قاموا بها هم قوم أنكروا إمامة عبد الوهاب وذلك أنه لم تمتز على إمامة عبد الوهاب سنة حتى قامت دعوة معارضة تطالب بتسكين مجلس للشورى يكون أعضاؤه أشخاصاً معروفين محددين . وقد تزعم هذه المعارضة في مبدأ الأمر أبو يزيد بن فندين اليفرنى ثم التحق به شعيب المصرى وكان الأول من أوائل من بايع الإمام ومن أشد المتحمسين له ، وكان يطعم أن تسند إليه بعض المهام فى الدولة .

ولكن عبد الوهاب لم يسند إليه شيئاً من ذلك فوجد فى نفسه وأراد الانتقام .

أما شعيب فقد كان يعتبر عالماً فاضلاً جليلاً من علماء مصر ممن ينظر الناس إليه ويقتدون به ويرجعون إليه فى أمور الدين . فلما سمع بحركة ابن فندين سافر من مصر إلى الجزائر ليزيد من لهيب الفتنة على الناس يعزلون عبد الوهاب أو يقتلونه فيسكون هو الشخصية الأولى المرشحة للإمامة عند الثوار وهذا فى ظفه طبعاً - فصبر عبد الوهاب على دعاة الفتنة حتى أغراهم تساهله معهم وزين لهم الأمانى والأحلام . فذبوا مكيدة لقتله ، ولكن المكيدة لم تنجح ، فافتضح أمرهم ، وانكشف سرهم ، فأعلنوا الثورة ، وأقدموا على الحرب ، وذلك أنهم تحمينوا حتى علموا أن الإمام عبد الوهاب خرج من المدينة لشأن من الشؤون فهجموا عليها فجأة ودون إنذار . ولكن أهل المدينة دافعوا عن أنفسهم ، وانتصروا على دعاة الفتنة . ولما رجع الإمام عبد الوهاب وكان وصوله بعد نهاية المعركة وجد على باب المدينة جيشاً ملقاة ، ودماء دراقة ، وظواهر تنبىء مما حصل ، وأخبره الناس بما وقع فأمر بالقتلى من الفريقين . فجمعوا ثم جعلوا فى صفوف وصلى على الجميع اقتداءً بأمر المؤمنين على بن أبى طالب فى وقعة الجمل ، ثم أمر بدفن الجميع .

قال الباشا الباروني في الأزهار صفحة ١١٢ ما يلي :

« ثم عاد الإمام من سفره ، ووجد القتلى في أماكنها ، والناس على أثر حرب مهولة في رعب وانزعاج ، فاستغرب السبب وسأل عنه فأخبر بالواقع ، فأمر بجمع قتلى الفريتين وصفت صفوفاً وصلى على الجميع صلاة الجنازة ، تطيباً لنفوس بقية أتباع ابن فندين وتأنيساً لهم ، وتأليفاً لقلوبهم » .

لم يكن يزيد بن فندين وأنصاره ينتقدون شيئاً على عبد الوهاب في سيرته وأحكامه ولكنهم استندوا في الإنكار عليه والدعوة إلى عزله أو قتله بعده بما يعتهم له على نقطتين :

الأولى : أنه بويع له بالإمامة وفي رجال الدولة من هو أعلم منه ، فإمامته في دعواهم باطلة ، وهم قد حضروا البيعة - ماعداً شعيباً - وعقدوها وكان ابن فندين حسب أقوال المؤرخين أحرص الناس على إمامة عبد الوهاب .

الثانية : أنهم طالبوه أن يعين مجلساً للشورى من أفراد معدودين محدودين معروفين ، لا تتجاوزهم الشورى إلى غيرهم ولا تمضي الأمور دون اتفاقهم ، ولا يتصرف الإمام بغير رأيهم .

وقد أخذت مناقشة هاتين النقطتين بين الدعاة والمعارضين لها كثيراً من الجهد والوقت ولم تقتصر على علماء المغرب ، وإنما تجاوزتهم إلى علماء المشرق ، وقد اهتم بها أولئك العلماء أيضاً ، وبحمورها على ضوء ما عرفوا في سنة النبي ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين .

وقد أجيبت عن النقطة الأولى أن المسلمين أجازوا عقد الإمامة لرجل وفي الأمة من هو أعلم منه ، استناداً إلى ما فعله أصحاب رسول الله ﷺ .

فقد بايعوا أبا بكر بالخلافة وزيد بن ثابت أقرض منه وعلى بن أبي طالب أقرض منه ، ومعاذ بن جبل أعلم منه . بشهادة رسول الله ﷺ . ولا خلاف بين الأمة في هذا مع إجماع الأمة على إمامة أبي بكر إلا ما يذكر عن بعض الغلاة في بعض فرق الشيعة وأولئك الغلاة لا يعتد برأيهم ، ومثل ما وقع في خلافة أبي بكر وقع في خلافة بقية الخلفاء الراشدين وحسب المسلم أن يهتدى بأولئك النجوم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي » .

وقد أجب عن النقطة الثانية: أن هذا المجلس لم يكن في خير القرون وأن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم لم يحددوا للشورى ناساً بأعيانهم ، لا تتجاوزهم الشورى ، ولا تقضى الأمور بدونهم ، ثم أن تكوين مجلس للشورى على هذا الوصف يكون سبباً لثبط الأحكام ، والحيلولة دون تنفيذ الحدود ، وقد يحول دون إمضاء الإمام لمهام الأمور التي يقع الضرر على الأمة أو على الدولة بتأخيرها .

وهكذا وقفت الدولة دون مطالب ابن فندين وآزرها في ذلك جميع العلماء والأئمة ولكن ابن فندين تشدد في تلك المطالبة حتى استحل بها الدماء وأشعل نار حرب ذهب هو ضحيتها .

٢ — الثورة الثانية : إنما كان الدافع إليها تعصب مذهبي محض فقد كانت الجزائر في ذلك الحين موطناً لعدد من المذاهب الإسلامية ، وكان بجوار تاهرت وتحت حكمها أعداد وافرة من القبائل القوية الغنية على مذهب الواسلية من المعتزلة وكانوا أصحاب علم ومال وفروسية . فأنفوا من البقاء تحت حكم الدولة الرسمية والرضا بسلطانها عليهم رغم أنهم لا ينتقدون

عليها شيئاً في سيرة أو حكم . وكانوا يفضلون أن يكون أئمة الدولة من رجال المعتزلة وأن تسير الدولة تحت رعايتهم فعملوا لقلب نظام الحكم كما يقال اليوم ، وكانوا جيموشاً جرارة دربوها على القتال تدريجاً متقناً ثم دعوا إلى الثورة فوَقعت بينهم وبين الإمام عبد الوهاب مفاوضات ثم مقاتلات عنيفة حتى توجس منها خيفة ثم انتصر عليهم في موقعة حاسمة وقتل في المعركة رؤساء الثورة ودعاة الفتنة وهدأ بقية الناس وسكن المشاغبون وساد الأمن واستقرت أوضاع الدولة .

٣ — الثورة الثالثة: كان الدافع إليها هو الجهل والغرور . فقد كانت بعض القبائل البدوية الكبيرة ، ذوات العدد الوافر في الرجال والأنعام ، تعيش على تربية المواشى تقبع مواقع الغيث ومواطن الخصب ، وكانت في إبان الربيع غالباً ، تقترب من تاهرت ، واقتربت في سنة من السنوات كالعادة من العاصمة ، ونزلت بمضاربها وأنعامها على بعض التلال والأودية الخصبة المحيطة بالمدينة . وكان وجوهها وأعيانها يدخلون إلى العاصمة لتقضاء مصالحهم ويرتادون أسواقها لعمليات البيع والشراء ، وكانوا يحضرون إلى المسجد ويصلون وراء الإمام ويستمعون إلى دروس وعظه وإرشاده ، ويشاركون في بعض ما يعن من الأمور . ويعرض من الشئون في المسجد ، لتجرى فيها مشاورة العامة والخاصة .

وكانوا يرون تواضع الإمام ولينه وقبوله للنصيحة . فيعجبهم منه ذلك ويفريهم بإبداء الآراء له ، وتوجيه النصيحة إليه . حاسمين أنهم يخدمون بذلك الدولة ويقدمون خدمة للأمة والوطن . وكان في المدينة بعض من يصطادون في الماء العكر ويضربون بأيدي غيرهم من يريدون ضربه ، فأرادوا

أن يستغلوا سداجة هؤلاء وأن يستخدموهم في مآربهم ، فاتصلوا بهم وأوحوا إليهم أنهم يحترمونهم لمسايعهم في الخير ، وأن الإمام أيضاً يستمع إليهم ويأخذ برأيهم ، ثم أوهموهم أن بعض الموظفين في الدولة مفسدون يحتاجون إلى تغيير وأنهم يطلبهم ذلك من الإمام وعملهم لإبعادهم أولئك الموظفين يقدمون خدمة للأمة يستحقون عليها الأجر من الله والشكر من الناس ، وصدق أولئك البداءة وسوسة هؤلاء فذهبوا إلى الإمام وطلبوا أن يخلي لهم المجلس فأخلاه لهم وقدموا إليه كشفاً بأساء بعض الموظفين والقضاة بطلبون عزلهم وتعيين آخرين مكانهم فشكرهم على إخلاصهم ، ونصحهم واهتمامهم بأمر المسلمين ثم طلب منهم أن يعودوا إليه في الغد ووعدهم أن ينظر في الموضوع بينه وبين رجوعهم ، وتحرى الإمام عن الموظفين والقضاة المطلوب عزلهم فلم يجد ضدهم شيئاً ولما رجع القوم إليه في اليوم الثاني لمعرفة النتيجة أخبرهم الإمام أنه هو لم يجد شيئاً يدين به أولئك الموظفين ، وغالب منهم إيضاح الأسباب إذا كانت لديهم أسباب ، ويبدو أن « أصحابهم » الذين استغلوهم لم يزودوهم بشيء ، فلم يجدوا ما يبررون به طلبهم ولكنهم أصرروا عليه فلما لم يستجب لهم الإمام خرجوا من مجلسه . وبدلاً من أن يغضبوا على أولئك الذين استغلوا سداجتهم وضعكوا على ذقونهم وسخروهم للانتقام دون سبب . بدلاً من ذلك غضبوا على الإمام لأنه رد وساطتهم ولم يأخذ بجاههم ويستجب لطلبهم . وكانت الأيدي الخفية لا تزال تنفخ في أوداجهم وتحرك فيهم نعمة الجاهلية حتى يبتوا أمراً فأبعدوا منازلهم عن العاصمة قليلاً . ثم بدأوا يستعدون لضرب العاصمة ، ويعدون المقاتلين لذلك ، وكانت أخبارهم تصل إلى الإمام عبد الوهاب فكان يتلصكاً ويصبر عساها يدركون خطأهم ويرجعون عن ذنبهم حتى تأكد لديه عزيمتهم على مهاجمته في المدينة فخرج إليهم وصفعهم

صفعة أدب ردت إليهم أحلامهم وأفهمتهم أن الدعوة إلى الفتنة ليست من أخلاق المؤمنين .

٤ — الثورة الرابعة : هذه الثورة كان الدافع إليها عاطفة شخصية محضة ، وأنانية صماء بغیضة . وكان لرئيس قبيلة كبيرة بنت اشتهرت بالعقل والأدب والجمال .

وذكرها الناس في مجلس الإمام وذكروا مزاياها فخطر له أن يخطبها أولاً لفضائلها وثانياً لتوثيق الصلة بينه وبين قومها وتقدم فعلاً لخطبتها وتزوج بها ، وكان هناك رئيس قبيلة أخرى يحلم بالزواج من تلك الفتاة ويذكر ذلك في مجالسه الخاصة بين أصدقائه ولكنه لم يتخذ الخطوة العملية ولم يتقدم إلى الخطبة فلما سبقه الإمام حسب ذلك تعدياً عليه ومراغمة له وتحدياً لمركزه . فأظهر الغضب وأكثر النقد وخرج من العاصمة يدعو إلى الثورة فاستجاب له ناس ممن يستجيبون لكل دعوة ويتبعون كل ناعق في كل عصر . ووقف الإمام معه موقف الصبر والأناة معتقداً أن الزمان كفيل بإرجاعه إلى منهج الرشd ولكن الرجل التزم طريق الغي وأوغل فيه وكان يزيد كل يوم شدة وتمادياً حتى بلغ به وبمن معه خداع النفس والاستهانة بأحكام الله أن استحلوا لأنفسهم استعراض الناس وقطع الطريق والولوغ في الدماء فلما بلغوا إلى هذا الحد خرج إليهم الإمام فصفعهم على أقيمتهم صفعات ردت إليهم رشدهم وعرقتهم أن الحق أحق أن يتبع .

٥ — الثورة الخامسة : كان الدافع إلى هذه الثورة هو حب الرئاسة والرغبة في التحكم فقد كان الإمام عبد الوهاب ولي وزيره السمع بن أبي الخطاب على حيز طرابلس وجبل نفوسة فلما توفي السمع وثب ولده خلف

إلى كرسى الولاية مكان أبيه وأيده جماعة من الطامعين الذين يلتفون حول كل حاكم ويزمرون في كل موكب ولم يكن خلف مرضياً عنه من أهل العلم والفضل والرأى فبعثوا إلى الإمام يخبرونه بوفاة عامله ويعزونه فيه ويخبرونه بوثوب خلف إلى مكانه دون رأى منهم وأنه ليس أهلاً لذلك المكان فبعث إليه الإمام أمراً باعتزال أمر الناس . وأخبره أنه وليّ أبا الحسن أيوب بن العباس مكان السمع بن أبي الخطاب فاستكبر خلف عن العزل واستنكف عن قبول أمر الإمام ودعا إلى فصل ليبيا عن الجزائر وبعث رسائل إلى علماء المشرق يطلب إليهم أن يفتوا له بجواز الانفصال ولسكن الأجوبة جاءت مخيبة للأمال وأوجبت عليه السمع والطاعة ما لم يكن هناك مبرر شرعى لعزل الإمام عن الإمامة جملة فأعرض عنها وجعل يستعد لإقامة دولة مستقلة في ليبيا ثم قام بعدة حملات إرهابية في الجبل ارتكب فيها ما يخالف الإسلام ويتعد به عن سيرة الإباضية الذين لم يستحلوا في يوم من الأيام أموال المساكين ولأدماهم ولم يميزوا أبداً الاستعراض والاعتقال والغدر ووقعت منه عدة مناوشات ومهاجمات وقد انتهت تلك الثورة التي ذهبت بكثير من الأموال وأراقت كثيراً من الدماء على يد العباس بن أيوب الذي لم يتوقف عن مطاردة خلف حتى انتهى منه وأراح منه الناس .

٦ — الثورة السادسة : هي في الحقيقة فتنة وليست ثورة وذلك أن بعض الأيدي الآثمة دبّرت اغتيال زعيم يسمى ابن عرفة ثم نسب الاغتيال إلى الإمام ووقفت مجموعات من الناس تطالب بالثأر من الإمام ووقعت عدة معارك ذهب فيها دماء وأموال ثم اعتزل الإمام الحكم وتم اختيار إمام جديد وبذلك انتهت تلك الثورة .

٧ — الثورة السابعة : بعد تولى أبي حاتم الإمامة بفترة قصيرة قام دعاة

يخرضون على الفتنة ويدعون إلى الفرقة ويشيعون قالة السوء وجدوا في إفساد قلوب الناس ، وأكثروا من النجوى فرأى الإمام أن ينفيهم من العاصمة حتى يقلل نشاطهم ويحد من حركتهم ، وقد فعل غير أنه خيرهم في المنفى فاختاروا أصلح مكان لحركتهم ، واستطاعوا أن يجمعوا حولهم عدداً من الأنباع في أقل مدة وتظاهروا بأنهم مظلومون مضطهدون وجهزوا جيشاً ودجموا على العاصمة في سرية تامة وعلى حين غفلة . وبدلاً من أن يلاقيهم الإمام بالقلعة التي معه فتقع مذبحه فضل أن يخلى لهم المدينة فخرج حتى سمع به الناس والتحقوا به وتكامل لديه جيش قوى يستطيع أن يردع به المعتدين ورجع بجيشه وحاصر العاصمة وكان جيشه يزداد قوة كل يوم وكان عدد البغاة ينقص كل يوم حتى نُسوا من موقفهم وسلموا فرجعت الأمور إلى نصابها وسار الإمام بالدولة في النهج القويم الذي عرفناه لأسلافه .

٧ — الثورة الثامنة : نشأ لليقظان أخى الإمام ولدان يبدو أنهما حقداً على الإمام وأضرما له الشر زمناً طويلاً إلا أن ذلك لم يعرفه عنهما أحد وواتهما فرصة في يوم من الأيام فوثبا على الإمام فقتلاه ، ونصبا والدهما إماماً على الدولة ولكن فرحتهما لم تتم فقد أعرض عنهما الناس وتبرأوا منهم ثم لم يلبث أن قدم عليهم أبو عبد الله الحجاني فقتل الوالد والولدين وبقية أفراد الأسرة وانتهت الدولة الرسمية بذلك والله الأمر من قبل ومن بعد .

هذه أهم الثورات التي قامت خلال قرن ونصف من حكم الدولة الرسمية حسب المصادر التي بين يدي لم أترك منها شيئاً إلا بعض مناوشات أو مخالقات لا تبلغ أن تسمى ثورة كواقف فرج النفوسى المشهور بنفقات

وهى مواقف لم تبلغ إلى حمل السلاح أو دعوى العصيان أو الخروج ،
وكمحاية بعض القبائل لقتلة ميمون وعدم تسليمهم إياه للدولة حتى أرغتهم
الدولة على التسليم واقتضت ممن يجب عليه القصاص .

وكلماوشة الخفيفة التى قام بها ابن خلف فلحق به أبو منصور فى جربة
وأخذه معه إلى الجبل فتاب وصلاح أمره حتى أصبح يسمى الطيب بن الخبيث
ابن الطيب .

وإذا رجعت أيها القارئ الكريم إلى تأمل الثورات السابقة ومعرفة
أسباب اندلاعها فإنك لن تجد فيها مبرراً واحداً لقيامها أو على أقل تقدير
لا تجد فيها سبباً واحداً متصلاً بسيرة الأئمة أو يكون وسيلة للطعن عليهم
فى عدالتهم ونزاهتهم للحكم فابن فندين يريد أن يفرض نفسه على الدولة ولما
لم يجد مكاناً تدرع بإدخال شرط فى الإمامة فلما لم يوافقه عليه أحد ثار حتى
قتل . والمعتزلة حملهم على ذلك تعصب مذهبى وهى حركة قامت وتقوم فى
كل مكان ولكنها ليست على كل حال طعنًا فى سلوك الإمام . والبداة
الذين خيل إليهم غرورهم أن الإمام أهانهم بعدم استجابته لمطالبهم تدل
ثورتهم على كفاءة الإمام ونزاهته ، أما العاشق الوهّان فهو نموذج من النماذج
الموجودة فى الدنيا والتى لا يدل تصرفها إلا على الإغراق فى الخيالات
والأحلام . أما خلف فقد خطر له أن يجعل الولاية وراثية ولكن الإمام
وقف له بالمرصاد ، أما المؤامرة التى ذهب ابن عرفة ضحية لها فقد مسرّشاشها
الإمام ولكنها فى الواقع جريمة دبرت فى الخفاء وهى دليل على براعة مدبرها
فى الإجرام لا على إدانة الإمام . أما الثورة التى قمعها أبو حاتم فهى لم تنزع
بأنهم الإمام بأى شئ وإنما كانت تزعم أنها حرة التصرف .

أما الثورة الأخيرة فهي ليست ثورة وإلما جريمة اغتيال تدين القائم بها فقط .

وإذا كان رؤساء غيرها في الدول - من أجل إقرار السلام - يقتلون بالعشرات - وبسجنون بالمئات بل بالآلاف لأسباب سياسية محضة لا تبيح القتل أو السجن فإن أئمة هذه الدولة قد سلمت من التلوث بدماء البريئة . والمصادر التاريخية التي بين أيدينا لم تذكر لنا حادثة قتل واحدة في عهد الدولة كله ما عدا ابن عرفة الذي لا يستطيع أحد أن يجزم بمعرفة قاتله حتى الآن وحتى دعاة الثورة أو الفتنة أو دعاة الشغب لم يسكن أئمة الدولة الرسمية يتناولونهم بالعقوبة حتى يبدأوا هم بالعدوان وحينئذ تقابلهم الدولة في صف القتال فإذا انتهت المعركة بانتصار الدولة على المشاغبين توقفت الدماء وتوقف التتبع ولم يسع الانتقام لما سبق الحرب من أعمال ضد الدولة أو ضد رجالها اللهم إلا أن تكون العقوبة حداً من حدود الله فإنهم حينئذ لا يتأخرون عنها مهما كانت العواقب .

الحروب فى عهد الدولة الرستمية

لعل الدولة الرستمية كانت أقل حروباً مع الدول الإسلامية الأخرى من جميع الدول التى قامت فى المغرب الإسلامى . وإليك أياها القارئ الكريم جميع الحروب التى وقعت بين الدولة الرستمية وغيرها من الدول المجاورة بإيجاز واختصار .

١ — الحرب الأولى : هى مناوشات صغيرة وقعت بين الدولتين الرستمية والأغلبيية فى طرابلس . وسببها أن بعضاً من جند الأغلبة خرج إلى القبائل البدوية الضاربة فى سهل الجفارة والتابعة للدولة الرستمية فارتكب ما يرتكبه مثله من أخذ الأموال وقتل من يحول دونها فذهب أولئك الناس إلى الإمام عبد الوهاب — وكان حينئذ فى جبل نفوسة — يشتكون إليه ويستجرون به فجهز جيشاً وذهب به إلى طرابلس وسمع إبراهيم بن الأغلب بالحركة فجهز جيشاً بقيادة ولده عبد الله وأرسله للمحافظة على ممتلكات الدولة الأغلبية فى طرابلس . وقد وصل الجند الأغلبى إلى طرابلس قبل أن يصلها الجند الرستمى فلما وصل عبد الوهاب ووجد الجيش الأغلبى فى المدينة حاصره حصاراً شديداً وكانت تقع بين فرق من الجيشين مناوشات صغيرة لا تلبث أن تنتهى وأخيراً طلب عبد الله من عبد الوهاب أن يعقدا بينهما صائحاً يتوقف فيه العدوان ويسود فيه بين الدولتين السلام على أن تكون طرابلس والبحر للأغلبة وما عداها للرستميين فوافق عبد الوهاب وتم الصلح على ذلك واحترمه كل من الطرفين .

٢ — الحرب الثانية : هى أيضاً مناوشة صغيرة وذلك أنه لما أرسل

الإمام عبد الوهاب عامله قطفان بن سلمة الزواعى إلى قابس عارضه بعض جند الأغالبة واحتك به ووقعت بين الفريقين مناوشات صغيرة انتهت بتسليم جند الأغالبة . وتمكن قطفان من ضبط شئون قابس ورعاية مصالحها وإدارة أمورها للدولة الرستمية .

٣ — الحرب الثالثة : كان العباس ولد أحمد بن طولون صاحب مصر ، عاصياً لأبيه نافعاً عليه وخرج أبوه ذات يوم من عاصمة المملكة لشأن من الشؤون فانتهاز العباس فرصة غياب والده وأخذ ما بالخزانة من أموال وأخذ معه ثمانمائة فارس وعشرة آلاف راجل من عبدان أبيه . واتجه إلى الغرب قاصداً القيروان ، لينبئ هنالك ملكاً له - فيما يحسب - بعد أن يقوض ملك بنى الأغلب . ولما وصل إلى لبدة تحرش بالإباضية وبعث برسالة تهديد إلى أبى منصور إلياس عامل الدولة الرستمية فى جبل نفوسة فغضب أبو منصور وجهز جيشاً فى اثنى عشر ألف مقاتل وزحف عليه فطحنه وقتل أغلب من معه وفر العباس منفرداً على فرسه حتى رجع إلى حضن أمه وتناثرت تلك الأموال التى سرقها من خزانة مصر لينبئ بها ملكاً فى القيروان فساحات القتال وبقيت هناك لم تمسسها يد من جند أبى منصور حتى جاءها بنو الأغلب والتقطوها من الأرض ومن أيدى الناس أما أبو منصور فعندما تم له النصر كف يده ويد جنده عن الدماء والأموال ورجع إلى مركز حكمه دون أن تتدنس جيوبه وجيوب أصحابه باستحلال أموال صانتها كلمة التوحيد وحفظتها شريعة الله .

٤ — الحرب الرابعة : قرر إبراهيم بن الأغلب وهو إبراهيم الأصغر الانتقام من ابن طولون باحتلال مصر وإضافتها إلى دولته فجهز جيشاً لجباً واتجه به إلى الشرق . وسمع أتباع الدولة الرستمية بما عزم عليه ابن الأغلب

وتوقعوا منه شراً فهو — ولا شك — سيمر في أراضيهم ولا بد أن يحاول احتلال ما يكون له طريقاً مأموناً بين القيروان وهصر وتوقعوا أنه سينالهم الشيء الكثير من الأذى فقرروا اعتراضه والوقوف في وجهه ورده إلى موطنه كما ردوا ابن طولون من قبله وبعثوا إليه يخبرونه بأنهم لا يسمحون له بالمرور في أراضيهم ولو في شريط ضيق واستمسك كل من الفريقين برأيه فجهز جيشه وبدأ المسير وجهزواهم أيضاً جيشاً زحفوا به إلى لقاء أبي العباس ابن الأغلب والتقى الجيشان وكانت معركة حامية الوطيس لقي فيها كل من الجيشين عنقاً وكتب النصر لبني الأغلب ولكن الضربة التي أصابته كانت قاضية فلم يتمكن من مواصلة سيره وتنفيذ قراره ثم أصيب باختلال في قواه العقلية بعد هذه المعركة العنيفة بقليل .

٥ — الحرب الخامسة : كانت الدولة العبّيدية قد كونت نفسها وبدأت تكتسح المغرب الإسلامي بلداً بلداً ، وتقوض أركانه دولة دولة حتى بلغت إلى تاهرت فابتلعها في سهولة ويسر كما ابتلعت غيرها من العواصم ونحن حين نسمى استيلاء الدولة العبّيدية على تاهرت حرباً نكون قد تجاوزنا كثيراً في التعبير لأن تاهرت في ذلك الحين لم يبق بها من آثار الدولة الرستمية إلا الرماد ممثلاً في اليقظان قابماً على كرسى وعلى جانبيه ولداه أما عدا ذلك فقد انفض عنه ، لأن سحق الناس عليه بلغ نهايته فتركوه وتركوا نصره في حكمه وكانوا ينظرون إليه في تشف وسيوف الحجاجي تقطع أوصاله .

وعلى كل حال فقد هجمت الدولة العبّيدية بجيوشها على تاهرت التي كانت عاصمة للدولة الرستمية فحربت المدينة ، وأحرقت مكتبة المعصومة وقتلت من بقي بها من السكان وطاردت من تشرد منهم في الآفاق .

هذه هي كل الحروب التي قامت بين الدولة الرستمية وبعض الدول الأخرى ولقد رأى القارىء الكريم أن حربين منها كانتا مناوشات صغيرة سببها سوء تصرف الجند الأغلب وأنهما سرعان ما انتهت حينما اتفقت الدولتان على وضع حد لتلك المشاحنات فهى ليست سوى مناوشات مما يقع عادة على أطراف حدود الدول والممالك بين الجند والناس .

أما الحربان الأخريان فلم تكن فيهما الدولة الرستمية مقصودة بالذات بالحرب ولا كانت هى قاصدة للعدوان على غيرها وإنما طبيعتها الجغرافية التى جعلتها تفصل بين دولتين متعاديتين كانت السبب فى أن تقع الحرب فى أرضها وأن تضطر للمشاركة فيها فعملت فى المرة الأولى على رد ابن طولون عن أرضها وحاولت فى المرة الثانية أن ترد ابن الأغلب عن ذلك .

أما الحرب الخامسة فلم تكن حرباً بالمعنى الصحيح وإنما كانت عبارة عن خلع باب مخلوع ونحر بو^(١) محشو^(٢) بالتهن .

(١) البو هو جلد المزار يحشى تبناً ويقرب إلى العاقبة فتجن عليه وتدر بالهين فتجلب وفي المثل : (فلان أخضع من بو) لأن البو تخضع به الناقة فتظنه ولدها حياً فتدر عليه .
(٢) - (الإباحية)

الدولة الرستمية بين الحرب والسلام

لو رجع القارئ الكريم إلى دراسة تاريخ الدول المجاورة لبنى رستم لوجدها - ما عدا الدولة الرستمية - في حالة حرب مستمرة فهي إما مشغولة بحروب داخلية تعمل على تهديتها وإطفاء نيرانها ، وإما مشغولة بالدفاع عن نفسها لأن دولا أخرى مجاورة تهاجمها وتريد القضاء عليها وتروم الاستيلاء عليها واحتلال بلادها ، وإما أن تكون هي التي ترغب في التوسع والسيطرة . وتوزع هجماتها على ما تستضعفه من البلاد والدول .

ويندر أن تمر بها فترة سلام . ولذلك فإن تلك الدول كانت قد اتخذت جنداً كثيفاً تدفع لهم المرتبات . ومهمتهم الوحيدة هي القتال في الدفاع أو الهجوم .

وكان يهمها أن يكون ذلك الجند مشغولاً دائماً بالقتال أو بالتفكير والتخطيط له فهم حين يستقرون يأسأمون من الفراغ . ويشغلون أنفسهم بتدبير المؤامرات . مستجيبين لدعاة الانقلابات الذين يتحينون الفرص وينتظرون اللحظات المناسبة .

أما الدولة الرستمية فقد كانت تعتمد - في جميع حروبها سواء كانت مع هجوم خارجي أو فوران داخلي - على التطوع فعندما تحتاج إلى جيش من المقاتلين يعلن الإمام ذلك ويدعو الناس إلى حمل السلاح لرد عدوان أو حفظ أمن . فيندفع الناس إليه متطوعين بأزوادهم وأسلحتهم دون إكراه ودون طمع في أي مكسب لأن الدولة لا تدفع لهم أي أجر على قتالهم ولا تسمح لأحد منهم أن يأخذ شيئاً من الغنائم والأسلاب ما دام القتال

بين طائفتين من المسلمين . ولا شك أن كثيراً من الناس يفضلون عدم الاشتراك في الحرب أو في المعركة الدائرة إما لانشغالهم بأعمالهم الخاصة أو لعدم اقتناعهم بأهميتها أو غير ذلك من وجهات النظر فيختلفون عن تلبية الدعوة والدولة لا تلومهم على ذلك ولا تحملهم على استجابة الدعوة بالقوة .

فالدولة الرسمية هي الدولة الوحيدة في ذلك الحين التي ليس لها جند قابع في الشككات ينتظر التعليمات ويحلم بالمكاسب والمغانم من وراء الحرب والغارات .

وقد نتج عن هذا الوضع الذي كانت عليه الدولة الرسمية في عسدم وجود جند معد للقتال مستعد على الدوام نقيجتان واضعتان في جميع المعارك والحروب التي وقعت بين الدولة الرسمية وخصومها سواء كانوا ثواراً في الداخل أو دولا مهاجمة من الخارج .

النتيجة الأولى : أن الدولة الرسمية غالباً ما تصاب بالخسائر في الهجمة الأولى وقد تخرج من العاصمة في بعض الأحيان حتى يتسامع الناس ويتلاحقون ويتأهبون لرد العدوان أو وقع الثورة ثم يقدمون على ذلك فتكون لهم السكرة وذلك لأن الهجوم المفاجيء لا يقابله جند مستعدون للحرب على جميع الأحوال يجدهم في مقابله متى حضر ، وإنما يقع الهجوم المفاجيء والناس في أعمالهم الحرة موزعين في مختلف الميادين . وبعد أن يهجم ويسمعون به يتجهون ثم يدفعونه .

النتيجة الثانية : ما يكاد يتجمع المتطوعون ويعطفون على مقاتليهم حتى يفتهمون عليهم بسهولة لأن المتطوع إنما جاء يحارب عن حرمه يبدأ أو

عقيدة فهو يستعيت في دفاعه ، ويبذل في الثبات ما يملك من جهد وقوة .
أما الجندي المأجور فهو إنما يحارب امتثالاً لأمر قائد ، وانتظاراً لمنفعة عاجلة من سلب أو غنيمة فإذا خشي على نفسه ، أو علم أنه لن يكسب شيئاً من وراء القتال سهل عليه الانهزام وبرر في نفسه سبب الإذبار .
فلذلك كان الجيش المتكون من المتطوعين الذين يحاربون عن عقيدة ومبدأ أبسل وأشجع وأصبر وأقوى دائماً من الجند المرتزق الذي يتخذ القتال مهنة والجندي حرفة يعيش بها فالجندي المتطوع جاء بالدافع النفسى بطلب الموت أما الجندي المرتزق فقد جاء يطلب ما يتمتع به في الحياة وشتان بين من يقدم على الحرب طلباً لما بعد الموت ومن يقدم عليها طلباً للمتاع والحياة والسلامة ولهذا المعاني كانت الجيوش الإسلامية منذ حملت الدعوة متطوعة لا تعرف الانهزام فلما دخلها الجندي النظامي كما يسمى وأصبحت الجندي مهنة للارتزاق بدأت تفشل في مواصلة الفتوح ثم فشلت في حماية نفسها أيضاً .

والدارس لتاريخ الدولة الرستمية يبدو له في وضوح أنها لم تكن دولة توسع ترغب في امتلاك البلاد وأن الأقطار التي كانت تحت لوأها إنما انضمت إليها برغبتها الجماعية أو برغبة الأغلبية الساحقة ، وهي تقتصر على هذه الرغبة في مدح حكمها . فمن أوى إليها أوتته ومن ازور عنها تركته .
وقد كان على حدودها في بعض الأحيان دول صغيرة ضعيفة يسهل احتلالها والسيطرة عليها وكان في بعض الجهات من حدودها بلاد لا تخضع لأية دولة وإنما تقيم على نظام عشائري خاص بها وكان من الميسور على الدولة الرستمية ابتلاع تلك البلاد وقبائلها ولكن الدولة الرستمية لم تحاول أن تضم إليها تلك الدويلات الصغيرة وتلك القبائل المتناثرة في جوارها وإنما كانت تبني معها علاقات المودة والصداقة وحسن الجوار .

وأحسب أن السبب في ذلك إنما هو ما ألزمته من السيرة التي تسير عليها ، فهي تسكره إراقة الدماء وتحشى أن تلوث سيوفها بالدماء الحرام ، وأيديها بالمال الحرام ويهيمها أن يأوى إليها أتباعها راضين راغبين . على أنه ليس لها أية فائدة تجنبها من الاستيلاء على غيرها بالقوة . ما دامت لا تفرض عليهم ضرائب ولا تأخذ منهم غرامات ، ولا تجمع في حروبها معهم غنائم ، ولا تضع في خزائنها المالية شيئاً من أموالهم المفصولة أو المصادرة ، ولا تكون منهم جنداً مرتزقاً ينتظر الأوامر بالزحف كما كانت تفعل الدول التي تطلب التوسع وتسعى للسيطرة على أكثر ما يمكن من البلاد لأجل ما تحصل عليه من المكاسب المادية بالغنيمة والضرية والغرامة والمصادرة .

وكانت الدولة الرستمية من القوة بحيث لا يطمع فيها الطامعون . وهكذا كفت يدها عن الغير وكف الغير يده عنها . فقد مر عهد عبد الرحمن كله دون أن تتعرض الدولة لحرب دفاع أو هجوم ومر عهد عبد الوهاب كله ولم تتعرض الدولة لحرب دفاع أو هجوم ما عدا حادثتين بسيطتين مما يقع على الحدود بسبب الاحتكاك ، ومر عهد أفلح كله وعلى طوله دون أن تتعرض الدولة لحروب دفاع أو هجوم ومر عهد أبي بكر دون أن تتعرض الدولة لحرب دفاع أو هجوم . ومر عهد أبي اليعتظان الطويل السعيد دون أن تقع حرب ما عدا واقعة واحدة على أطراف الحدود الشرقية قام بها مفسامر جرىء هو العباس بن أحمد بن طولون فلقنه عامل الإمام أبو منصور درساً حين حاول أن يخترق الحدود الرستمية رجع به دون جيش أو مال إلى أبيه في مصر . ثم يمر عهد أبي حاتم دون أن تتعرض الدولة لحرب ما عدا واقعة واحدة حاول فيها ابن الأغلب أن يخترق الأراضي الرستمية

في جهاتها الشرقية فاعترضه عامل الإمامة واصطدم الجيشان فتحطما معاً واختل بسببه عقل ابن الأغلب . ثم يحىء اليقظان فيلوث يديه بالدم البريء قبل أن يصل إلى منصب الإمامة فتسخط عليه الأمة ويقدم عليه أبو عبد الله الحجاني فينجره كما تنجر الجزور دون أهل وتنتهي الدولة الرسمية عند مقتل أبي حاتم ولا تعترف بمحاولة اليقظان لبناء العرش والصمود عليه .

ومما يدل أن الدولة الرسمية لم تكن تنوى الهجوم على أحد ولم تكن تتوقع أن يغزوها أحد . أنها لم تشقك في أية معركة بقوتها الكاملة زاحفة من العاصمة أو قلب الدولة وإنما كانت تقع لها المناوشات على أطراف الحدود فيقف لها الجانب القريب منها .

فعندما خرج جند الأغالبة من طرابلس إلى بعض السهول القريبة من العاصمة يروع البداة الآمنين ، ويمتز منهم أموالهم زحف إليه عبد الوهاب بمن حضره من رجال الجبل فأصلحوا الفساد ، وعتدوا المعاهدة مع ابن الأغلب دون أن يحرك قلب العاصمة ويطلب منها المدد أو حتى الاستعداد للمدد . وعندما جاء العباس بن طولون منفتح الأوداج وهو ينشد في غرور :

لله درى إذ أعدو على فرسى إلى اللقاء ونار الحرب تستعر
وفي يدي صارم أفرى الرؤوس به في حده الموت لا يبقى ولا يذر
إن كنت سائلة عنى وعن خبرى فما أنا الليث والصمصامة الذكر
من آل طولون أما إن سألت فما فوق المفتخر بالجود مفتخر
لو كنت شاهدة كرى بلبدة إذ بالسيف أضرب والهامة تبتدر
إذاً لشاهدت منى ما تناقله ننى الأحاديث والأنباء والخبر

فزحف إليه أبو منصور بمن حضره من تلك الجهات دون أن يزعجوا

الإمام ولا مركز الدولة بالاستئذان أو طلب المعونة . وحقق للعباس بن طولون ما افتخر به من الجود فقد تسكرم بعشرة آلاف من عبدان أبيه وبثمانمائة حمل من الذهب بعثرها في ميدان القتال وعاد إلى أبيه بعدو على فرسه بعد أن استفاق من حلم لذيد على واقع مرير . وواجه قطفان بن سلمة الرواغى عربدة الجند الأغلبى في قابس بمن كان معه في ذلك الحين .

وجيز أفلح بن العباس من استطاع تجهيزه من ليبيا للملاقاة ابن الأغلب في مانو ، دون الرجوع إلى مركز الخلافة ولا طلب المدد منها .

أما الدولة العبيدية حين هجمت على الدولة الرسمية في تاهرت فقد جاء هجومها متأخراً لأن الدولة الرسمية كانت قد انتهت ولم يبق فيها من يقوم للقتال .

وهكذا ترى أيها القارئ الكريم أن هذه الدولة التي عاشت نحو قرن ونصف لم يحدث فيها أن عباأت قوتها الكاملة لحرب دفاع أو هجوم مما يدل على أنها كانت تعيش آمنة مطمئنة لا تخاف ولا تخيف بل إن من يتقبع أحوال اضطراب الأمن فيها بسبب الأحداث الداخلية أو الخارجية يجدها لا تتجاوز ثلاثة عشر أو أربعة عشر حدثاً طيلة مدة حكمها ومثل هذه الأحداث يقع في سنة واحدة في دول أخرى مجاورة لها بل في شهور . ويمكن هذا لمعرفة السلوك الذي كانت تسير به تلك الدولة .

كيف وصل الأئمة الرستميون إلى الحكم

في هذا الباب أحاول أن أعرض على القارئ الكريم الصور التي تم فيها اختيار الأئمة في الدولة الرستمية ليستطيع مقارنتها بالأسس التي وضعها الإسلام لاختيار الحكم من جهة ، وبطرق وصول الحكم إلى الحكم في الدول المجاورة من جهة أخرى .

يبدو أن أئمة الإباضية في المغرب الإسلامي جميعاً - ما عدا اليعقوباني الذي تبرأ منه الإباضية ولم يعتبروه إماماً - قد وصلوا إلى الحكم بالأسلوب الذي وصل به الخلفاء الراشدون إلى الحكم ، وتم اختيارهم على إحدى الصور التي تم فيها اختيار أحد الخلفاء ولم يكن لولاية العهد أى اعتبار أو نظر بل لم يكن لهم فيها أى تفكير ولا عنها أى حديث وفيما يلي سوف نعرضهم واحداً واحداً بالترتيب :

الأول : إن أول إمام للإباضية في الدولة الرستمية هو عبد الرحمن بن رستم الفارسي وقد وصل عبد الرحمن إلى الإمامة بطريقة الاختيار العام قال ابن الصغير المالكي فيما نقله عنه الباشا الباروني في الأزهار اليباضية صفحة ٨٤ ما يلي :

« ثم نهضوا إليه بأجمعهم وقالوا : يا عبد الرحمن رضيك الإمام (أبو الخطاب) في ابتدائنا فنحن الآن نرضى بك ونقدمك على أنفسنا ، فقد علمت أنه لا يصلح أمرنا إلا بإمام نلجأ إليه في أمورنا ، ونحتكم عنده فإنيوب من أسبابنا . فقال لهم :

إن أعطيتموني عهد الله وميثاقه على الطاعة فيما وافق الحق وطابقه

قبلت ذلك منكم ، فأعطوه عهد الله وميثاقه على ذلك . وشرطوا عليه مثل ما شرط عليهم وقدموه على أنفسهم وألقوا إليه بأيديهم ، فصار فيهم سيرة جميلة حمداً أولهم وآخرهم ، ولم ينقموا عليه في أحكامه حكماً ولا في سيره سيرة ، وسارت بذلك الركبان إلى كل البلدان .

قضى عبد الرحمن بن رستم في الإمامة إحدى عشرة سنة كاملة كانت كأنها فترة من الخلافة الرشيدة قبل أن تثور الفتن ، وعندما أحس بدنو أجله جمع إليه الأعيان والوجهاء والعلماء والصالحين وأوصاهم بما يوصى به المؤمن وهو يترك الدنيا ويستقبل الآخرة ، ثم رشح للإمامة من بعده سبعة أشخاص حسب اجتماعه ليختاروا واحداً منهم يتولى الإمامة ، وقد كان في هذا الترشيح مقتدياً بأمر المؤمنين الفاروق .

الثاني : توفي الإمام عبد الرحمن مرضياً عنه مأسوراً عليه ، وبدأت المناقشات في اختيار الإمام الجديد الذي يخلفه ، وتدافعوا خيار المرشحين في بادئ الأمر بينما رغب فيها غيرهم ، وطال أمد النقاش مدة شهر تقريباً انتزع منه أن أولى المرشحين بها وأكثرهم رصيداً من محبة الناس ورغبتهم اثنان : هما مسعود الأنديسى ، وعبد الوهاب الرستمى ، وأن الناس يفضلون مسعوداً على الجميع ويفضلون عبد الوهاب على الباقي وقرروا أن يبايعوا مسعوداً وحددوا موعداً فلما بحثوا عنه لم يجدوه وذهبت جهودهم في البحث هباء فقد اختفى . وتشاور القوم من جديد وقرروا على مبايعة الرجل الثانى عبد الوهاب الفارسى ، فعرضوا عليه الأمر بعد امتناع مسعود وخفائه فأظهر لهم الرضا واستعد لتحمل أعباء هذه الأمانة الثقيلة التى يقر منها من يخشى من نفسه الضعف والخور ولسان حاله يقول ما قاله عبد الله بن وهب فى

موقف مشابه : هاتوها فوالله ما آخذها رغبة في الدنيا ولا أدعها خوفاً من الموت .

وما علم مسعود أن الناس قد تركوه واتجهوا إلى عبد الوهاب وأن عبد الوهاب رضى ووافق حتى ظهر بين الناس وكأنما انشقت عنه الأرض وكان أسرع الناس إلى مبايعة عبد الوهاب وتتابع الناس حتى تمت البيعة بالإجماع . وشمّر عبد الوهاب للقيام بمهام منصبه الجديد فكان عند ظن المؤمنين به استقامة وزاهة وعدلا مع ذكاء نادر ووزارة علم وحرص على الدراسة والتدريس ، كانت طريقة انتخاب عبد الوهاب شبيهة جداً بطريقة انتخاب أمير المؤمنين ذى النورين وقد سلك عبد الوهاب بالناس المحجة وسار على النهج الذى اتبعه المدول من أمة محمد ﷺ وفى آخر مدته استقرت الأمور وانتشر الأمن وساوى العدل بين الناس فرأى أن يؤدى فريضة الحج فأناوب عنه ولده أفلح فى رعاية الدولة وسار متنقلا بين القرى والبلدان حتى بلغ جبل نفوسة وهناك وقف فى وجه جماعة من كبار العلماء ومنعوه من الحج خوفاً عليه من العباسيين وأقبعوه أن الطريق بالنسبة إليه غير مأمونة^(١) فأناوب عنه من قام بالحج ومكث بالجبل سبع سنوات يلقي الدروس فى مسجده المعروف إلى الآن . وفى هذه السنوات السبع كلها كانت أمور الدولة على أحسن ما يرام . سلام دائم ، وعدل شامل ، واستقرار تام ، وبعد ذلك رجع إلى عاصمة الإمامة (تاهرت) فلبث هناك أربع سنوات أخرى يشغل بالتدريس والتأليف وكانت الدولة تسير سيرتها العليبية آمنة مطمئنة مستقرة .

(١) وقد أثبت التاريخ صدق ظنهم فقد حج حفيده أبو اليقظان ولم يكن حينئذ أميراً ولا ولياً للعهد ولكنهم مع ذلك اعتقلوه وبقي فى السجن سنتين ولم يطلق سراحه إلا لأن الخليفة الذى اعتقل فى عهده توفى وتولى من بعده خليفة جديد فأطلق المساجين لهذه المناسبة .

ولما أحس بدنو الأجل لم يهتم بمن يتولى الإمامة من بعده . فإن حالة الأمة حينئذ كانت لا تدعو إلى الخوف من فتنة أو نزاع وكان في موقعه هذا مقتدياً بالرسول ﷺ .

الثالث : عندما توفي الإمام عبد الوهاب وأتم الناس تشييع جنازته إلى مقره الأخير اجتمع العلماء والأعيان وأصحاب الشورى وناقشوا موضوع الإمامة فاتفقوا بالإجماع على اختيار أفلح بن عبد الوهاب وقد كان أفلح من الظهور والبروز والتميز في حال لا تسمح لظهور منافس له في هذا الموضوع كما أنه كان قد تدرّب على تصريف الأمور وإدارتها والتّمسّس على حل مشاكل السياسة ومعالجتها في عهد والده لمدة طويلة ولذلك فقد استمرت أمور الدولة كأنها لم تنتقل من يد إلى يد أخرى وإنما جرت على نفس الوتيرة وبنفس الأسلوب واستمرت الدولة على حالها من السلام والاطمئنان والعدل إلى نهاية إمامة أفلح وعندما أحس بدنو الأجل لم يهتم بموضوع الخلافة من بعده وإنما تركها شورى بين المسلمين يختارون لها من يشاءون كما تركها أبوه من قبل . وكما تركها رسول الله ﷺ .

الرابع : بعد وفاة الإمام أفلح اجتمع الناس اجتماعاً سريعاً وتداولوا في أمر الإمامة وكانت الأكثرية الغالبة مائلة إلى أبي بكر بن أفلح وإن كانت قد ارتفعت بعض الأصوات المعارضة أثناء المناقشة ولكنها ذابت واختفت وسط الأغلبية وتمت بيعة أبي بكر في صورة إجماع كامل وسار الإمام أبو بكر بالإمامة على النهج السابق فترة من الزمن ثم حبكت مؤامرة قتل فيها شخصية من الشخصيات البارزة في الدولة هو ابن عرفة ونتج عن هذه المؤامرة فتنة عارمة استبدت بالدولة والأمة زمنًا . تنازل بعدها أبو بكر

عن الإمام بإشارة من أصدقائه حقماً للدماء على الأرحح أو من نفسه عزوفاً عنها واعتزل السياسة وما يتصل بها فلم يظهر له أثر فيها فيما بعد .

الخامس : عندما وقعت الفتنة بمؤامرة قتل ابن عرفة وتنازل الإمام أبو بكر عن الإمامة اجتمعت الأطراف المتخالفة ودرسوا موضوع الإمامة بعد أبي بكر وبعد تلك الفتنة العارمة ووقع اختيارهم على أبي اليعقظان محمد بن أفلح فكونوا فيما بينهم لجنة أرسلوها تعرض الموضوع عليه فقبل من اللجنة بشرط أن لا تثار مشا كل الفتنة السابقة وكانت اللجنة أيضاً تحب ذلك فقبلت وبلغت الأطراف بقبول أبي اليعقظان وتمت بيعته هذا الإمام بالإجماع فسار بالدولة أحسن سيرة مدة أربعين سنة ولما أحس بدنو الأجل لم يهتم أيضاً بموضوع الخلافة لأن الدولة كانت على أحسن ما يكون من الازدهار والسلام والأمن وكانت الأمة على أحسن ما يكون من الازدهار والانسجام والوفاق فتركها شورى بين المسلمين يختارون لها من يشاءون .

السادس : بعد وفاة الإمام أبي اليعقظان سارع الناس إلى ترشيح أبي حاتم وارتفعت الأصوات من الساحات والشوارع تدعو إلى بيعته وكان غائباً في مهمة بعثه إليها الإمام السابق فلما رجع تلذفته جماهير الناس خارج المدينة يعزونه في الإمام ويباعونه بالإمامة وكانت الجوع تهاوت عليه حتى غصت بهم الحارات والأزقة وقصدوا به إلى المسجد الجامع حيث صلى بهم الظهر وتمت له هناك البيعة بالإجماع تقريباً - وقلت تقريباً لأن عمه يعقوب بن أفلح كان موجوداً فلم يبايع ولم يعارض ويبدو أنه وجد في نفسه ولذلك فقد وقف موقفاً سلبياً واعتزل في زواغة بعيداً عن مجرى الأمور ثم حدثت أحداث وقعت فيها فتنة دعا فيها الساخطون على الإمام: عمه يعقوب وعرضوا

عليه البيعة قبلها منهم ثم أدرك خطأه فاعتزل ورجع إلى زواغة وأطفأ الإمام نار الفتنة فهدأت الأمور واستقامت السيرة ورجعت الحال إلى ما ألفه الناس أيام الازدهار ، وعلى حين غفلة وثب ولدان لليقظان على عمهما أبي حاتم فقتلاه ونصباً أباهما على الإمامة ولكن الأمة التي ألفت العدل والاستقامة والنزاهة والشورى غضبت على اليقظان وتبرأت منه ومن ولده وساعده ، ثم اجتمعوا فبقى منفرداً هيكلاً على كرسي كأنه تمثال من التمشيد ولم يتمكنوا من إنزاله وإقامة إمام بدله حتى قدم أبو عبد الله الحجاني مولى أبي عمير الله الشيعي فوجد اليقظان أمامه أعزل من كل سلاح قد سخط الناس عليه وعلى من شايعه وتبرأوا منه وأسلموه ؛ فقتله بسهولة ويسر مع أهله وأولاده واحتل تاهرت وتعقب أفراد الأسرة الرسمية حتى قضى عليهم ولم ينج منهم إلا أبو يوسف يعقوب بن أفلح . فقد فرّ هو وأهله وأتباعه إلى وارجلان .

هؤلاء هم أئمة الدولة الرسمية الذين تولوا الحكم قرابة قرن ونصف وهذه هي الطرق والأساليب التي جرى عليها أصحاب رسول الله ﷺ في زمن الخلافة الرشيدة وفي خير القرون فقد اختير كل من عبد الرحمن وأفلح وأبي بكر وأبي اليقظان وأبي حاتم بطريق الشورى والاختيار العام دون عهد أو وصاية أو إيعاز على الأسلوب الذي اختير به الصديق وأبو الحسن وتولى عبد الوهاب بطريقة الترشيح على الأسلوب الذي اختير به ذو النورين عثمان . وقد اقتدى عبد الرحمن بالفاروق فرشح لها سبعة من الناس واقتدى ببيعة الأئمة برسول الله ﷺ ، وبأبي الحسنين فلم يرشحوا لها أحداً . هذا بقطع النظر عن اليقظان الذي اغتصب الإمامة فلم يعترف به أحد من الإباضية كإمام وأسلموه فلم ينصروه .

ولو أن جميع الدول الإسلامية الأخرى سلكت نفس النهج وسارت على سنة رسول الله وأصحابه فلم تحول الخلافة إلى ملك عضوض تقطع فيه الرؤوس بغير حساب لوفرت على الأمة الإسلامية كثيراً من الدماء والفن والاعتداء على حدود الله .

على أن هناك ثلاثة أشخاص آخرين وصلوا إلى الحكم في الدولة الرستمية ولكن الأمة لم تعترف بحكمهم . والتاريخ الإباضى لم يسلكهم في مسلك أئمة الذين رضى طريقة بيوتهم وطريقة حكمهم وسيرتهم في مدتهم وهؤلاء الثلاثة هم :

١ — محمد بن مسالة الهواري : كان رجلاً غنياً كريماً محبوباً من الناس مسموع الكلمة فلما خرج أبو بكر من تاهرت نقيجة المؤامرة التي ذكرنا تفاصيلها في فصول أخرى دخل محمد بن مسالة إلى العاصمة وصار مرجع الأسر والنهي في المدينة وكان ناس يميلون إليه . فاستمتع بالحكم مدة الفتننة إلا أنه لم يطالب بالبيعة لنفسه ولا طلبها له الناس ولا عرضها عليه أحد فلما انتهت الفتننة وتنازل أبو بكر وأجعت الأمة على مبايعة أبي اليقظان استسلم لرغبة الناس ودخل فيما دخلوا فيه . وبما أنه تولى الحكم على جزء فقط من أرض الدولة وفي أيام فتننة وبغير شورى ولم يطالب أحد بالبيعة ولم يدع لنفسه الإمامة فإنه لم يحسب من أئمة الدولة الرستمية ولم يسلك في نسقهم .

٢ — أبو يوسف يعقوب بن أفلح : عندما ثار بعض الناس على أبي حاتم دعوا يعقوب بن أفلح فبايعوه بالإمامة ودخل تاهرت وقبيل البيعة ووقعت بينه وبين أبي حاتم عدة حروب ثم أدرك خطاه وندم على عمله وسلم للإمام الشرعى وبما أنه تقبل بيعة فئة باغية . ورغى أن يكون على رأسها ،

وقام على إمام شرعى ثبتت إمامته بالبيعة العامة ولم يرتكب ما يدعو إلى خلعها وأنه لم يتغلب على البلاد ولم يصل إلا إلى حكم جزء من أرض الإمامة لوقت قصير .

وبما أنه أدرك خطأه وندم على عمله ، وسلم لأهل الحق حقهم . فلم يحسب في عداد الأئمة الذين تولوا الحكم في الدولة الرسمية . وقد انتقده الناس في حركته تلك على إعجابهم به . ويقول المؤرخون : إن يعقوب لم تكن له هفوة غير تلك وقد تاب منها . غفر الله له . وهو معدود في أئمة العلم والدين لا أئمة الحكم والسياسة .

٣ — اليقظان بن محمد : تأمر ولداه على أبي يوسف فقتلاه ليتولى هو الإمامة فسيخط عليه الناس وتبرأوا منه واعتزلوه وأعرضوا عنه . ولم يرد مؤرخو الإباضية أن يلوثوا بأيام حكمه عهد أئمتهم النظيفة الزاهرة . ولذلك فهم يؤرخون لانتهاء الدولة الرسمية بمقتل أبي حاتم يوسف ولا يعترفون بأيام اليقظان وكانوا يزجرون من بعده في الأئمة وإنما يعدونه في الملوك الظالمين والسلطين الجورة ، وكانوا يبرأون ممن دخل تحت طاعته ورضى بحكمه واعترف بإمارته .

أئمة الدولة الرستمية

لقد وضعت بين يديك أيها القارئ الكريم صوراً مختلفة للدولة الرستمية ، التقطتها لها من جميع جوانبها ، ثم ذكرت لك الطريقة التي وصل بها كل إمام من أئمتها إلى الحكم ، وفي هذا الفصل أريد أن أعرض عليك صورة شخصية لكل إمام منهم حتى يكمل المشهد لديك ، وتوضح الحقائق بين يديك .

١ — الإمام الأول للدولة الرستمية هو عقيد الرحمن بن رستم الفارسي ، وربما قرأت عنه في الحلقات السابقة والذي أريد أن أعرضه عليك هنا إماماً هو صورة شخصية له بعد أن أصبح أمير المؤمنين في تاهرت ، بايعه الناس بالإمامة سنة ١٦٠ للهجرة وتوفي سنة ١٧١ منها ، فكانت مدة إمامته إحدى عشرة سنة .

قال عنه الباشا الباروني في كتابه الأزهار الرياضية صفحة ٩٨ ما يلي :

« كان رحمه الله مشهوراً بالعلم معدوداً في فحول العلماء الراسخين . له تفسير جليل القدر ، تسكلم عليه المؤرخون ولا وجود له الآن ، وله ديوان خطب نفيسة .

ذكر العلامة الوارجلاني رحمه الله أنه رآه وله رسائل متعددة وجوابات كثيرة مفيدة في فنون من العلم ، بعضها موجود وبعضها مفقود . وبالجملة فقد كانت مدة هذا الإمام بالمغرب أيام سكون وراحة وعدل ، ولا حرب ولا شقاق ، وكان محبوباً عند الجميع مهيباً ، مطاع الأوامر والنواهي .

ونقل الباشا البارونى عن ابن الصغير المالكي فى نفس الصفحة ما يلى :

« فلم تزل أموره كذلك وعلى ذلك ، والكلمة واحدة ، والدعوة مجتمعة ولا خارج يخرج عنه ولا طاعن يطعن عليه إلى أن اخترمته منيته وانقطعت أيام مدته » .

ونقل عنه أيضاً فى صفحة ٨٤ ما يلى :

« فسار فيهم سيرة جميلة ، حمدها أولهم وآخرهم ، ولم ينقموا عليه فى أحكامه حكماً ولا فى سيره سيرة ، وسارت بذلك الركبان إلى كل البلدان ، وكانت له قصص حكوها عنه لا يمكن ذكرها إلا على وجهها ، وأن أتحرى فيها الصدق ولا أحرفها عن معناها ، ولا أزيد فيها ولا أنقص منها ، إذ النقص فى الخبر والزيادة فيه ليس من شيم ذوى المروءات ، ولا من أخلاق ذوى الديانات ، وإن كنا للقوم مبغضين ، ولسيرهم كارهين » .

ونقل عنه فى صفحة ٨٥ ما يلى :

« لما ولى عبد الرحمن بن رستم من أمور الناس ما ولى ، شمر مؤزره ، وأحسن سيرته وجلس فى مسجده للأرملة والضعيف لا يخاف فى الله لومة لائم » .

بعث إباضية المشرق وقدأ إلى تاهرت ليعترف على أحوال هذا الإمام ، قال الباشا البارونى فى الأزهار الرياضية صفحة ٨٦ ما يلى :

« فوجد رجلاً جالماً على جلد فوق حصير وما فى البيت سوى سدة ينام عليها وسيف ورمح وما أشبه ذلك من السلاح والعدة ، وفرس ، فسلموا عليه وبلضوه سلام إخوانه فحياهم بأحسن تحية وأمر الخلام فأحضر مائدة عليها (ه - الإنباهة)

قِرص سَخنة وشيء من سمن وملح فهِشَم القِرص في السمن وقال : على اسم الله
ادنوا فاكلوا ، فتقدموا وأكل معهم إكراماً لهم ، وهضمًا لنفسه .

وقال الأستاذ عثمان السكعك في موجز التاريخ العام للجزائر ص
١٨٧ ما يلي :

« إلا أن عبد الرحمن لم يتبع الذوق العام في الترف والبنخ بل كان
لم يزل على ما كان عليه من التقشف الزهد » .

وقال الأستاذ السكعك صفحة ١٨٦ ما يلي :

« فاستمر في عمله فرتب البلاد ، واستمر فيها بالعدل والإنصاف متبعاً
أحكام الدين ومتبعاً لأوامره ، واقفاً عن نواهيهِ ، فدانت له الرقاب خاضعة
لعدله ، ووفدت الأقوام إلى مملكته داخلة تحت رايته لما لها من كفالة في
حكمه ، ومن طمع في الارتزاق تحت ظل الأمن والرعاية » .

هذه صورة مصغرة جداً للإمام الأول في الدولة الرستمية تعاون على
وضعها أقلام ثلاثة من المؤرخين الزهاء هم : ابن الصغير والباروني والسكعك .
وليس لي فيها من يد غير وضعها على لوحة عرض الصور أمام القارئ
السكرام .

٢ — الإمام الثاني للدولة الرستمية هو عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن
رستم الفارسي . بايعه الناس بالإمامة بعد وفاة أبيه عبد الرحمن ، أخذ العلم عن
حملة العلم ، وأكثر ما أخذ عن والده وعن أبي داوود القبلي وكان في عهد
إمامة والده عبد الرحمن يشغل بالتجارة مع الشرق والجنوب حتى أثرى
وأصبح من أغنياء الدولة . وعندما حملته الأمة أمانة الإمامة ورئاسة الدولة ،

استعد لملها بإخلاص وتصميم ، فقامت في طريقه عقبات ، وثارت زوابع ، ولكنه استطاع بما أوتي من علم وصبر ، وما اتبعه من حكمة وعدل وشورى أن يمهّد تلك العقبات ، وأن يسكن تلك الزوابع .

قال عنه الباشا البارونى فى الأزهار الرياضية صفحة ١٣٧ ما يلى :

« ولما رأى الإمام رحمه الله من سائر أتباع دولته كمال الانقياد ، واستيلاء الأمن والعافية على البلاد ، وانقطاع دواعى الفساد ، وجرثومة العقو والعناد ، حن متشوقاً إلى زيارة ضريح أفضل الخلق على الإطلاق نور الوجود . ونبراس اليوم المشهود سيدنا محمد ﷺ وعلى آله الأبرار ، وإلى تلك الديار المقدسة الطاهرة وقد علم نفسه رحمه الله أنه ممن تعين فى حقه القيام بأداء فريضة الحج المعظم لما لديه مما أتاه الله من فضله من الثروة الواسعة ، إذ كان رحمه الله قبل تحمله أعباء الإمامة من أعظم أولى الأموال الوافرة فى عصره ، فكانت تجارته فى أشهر المدن والجهات كالسودان . »

على أنه لم يتمكن من تنفيذ عزمه هذا على الحج فبعد أن صمم وأخذ زوجته معه وسار إلى الشرق منعه مانعون .

قال الباشا البارونى فى الأزهار صفحة ١٤٠ ما يلى :

« ولما فشا خبر توجه الإمام إلى الحج اجتمع العلماء وأصحاب رأى من نفوسة وغيرهم وانفقوا على منعه والمعرض له ، خوفاً من غدر ملوك الشرق به ومن قبضهم عليه لأن الملك فى تلك الأقطار لهم . »

واستجاب عبد الوهاب لبفوسة بعد تردد وتمنع ، وأتاب عنه شخصاً ليقوم بالحج عنه ، استناداً إلى احتمال شرط أمن الطريق بالنسبة إليه ،

وبدلاً من أن يعود إلى مركز الإمامة وعاصمة الحكم بقي في جبل نفوسة سبع سنوات كاملة . قام فيها بهوايته المفضلة : الدراسة والتدريس . فكان يلقى دروس العلم على طلبة العلم من الشباب . ويلقى دروس الوعظ على العامة وكان أحياناً يلقى العلم عن بعض كبار العلماء والمشايخ أمثال ابن مغطير الذي سبق حملة العلم إلى الدراسة على أبي عبيدة في البصرة وطال به العمر حتى أدرك إمامة عبد الوهاب وهو قوى البنية سليم الذهن حاد الذكاء .

وبعد سبع سنوات رجع الإمام إلى عاصمة إمامته فوجدها على أحسن حال . الأمن منتشر ، والعدل قائم ، والاقتصاد مزدهر ، وفرص الحياة متساوية ، ورغد العيش قد شمل الناس جميعاً . فاشتغل هناك أيضاً بهوايته المفضلة : الدراسة والتدريس تاركاً الشؤون السياسية بين يدي من هي عندهم تسير في نظام واستقرار .

قال عنه البابا الباروني في الأزهار صفحة ١٤٣ ما يلي :

« وبالجملة فقد نشر في تلك المدة من درر البيان وجواهر التبيان ، ما اهتدى به كل جاهل واستضاء به كل مظلم ، وتنبت به كل غافل من علوم زاهرة ومواعظ زاجرة ، وأحاديث فاخرة عطفت عليه الأبواب ، وأخضعت له الرقاب ، فاستمت حلقة مجلسه المهيب وانتظم في سلك عقدها العلماء الراسخون ، وأمّهات من الفقهاء والعلماء والأدباء والعباد وأهل الصلاح من نفوسة وغيرهم من يثلج ذكركم الصدور .

ويملاً حديث مفاخرهم ومزاياهم الدفاتر والسطور .

وقال البابا الباروني في نفس الكتاب صفحة ١٦٣ ما يلي :

« وكان له عدة رسائل وأجوبة مفيدة جداً في فنون شتى ، بعضها موجود وبعضها مفقود ، قال ابن الصغير : وكان لعبد الوهاب كتاب يعرف بمسائل نفوسة الجبل كتبت إليه في مسائل أشكلت عليها فأجابها عن كل مسألة مما سألت عنه ، وكان هذا الكتاب في أيدي الإباضية ، مشهوراً عندهم معلوماً يتداولونه قرناً عن قرن إلى أن لحق الفضل فأخذته من بعض الرستمين فدرسته ، ووقفت عليه ، وله أقوال مشهورة معتمدة في كتب الفقه وغيرها . »

ولعل القصة الآتية تعطينا صورة أوضح عن شغفه بالدراسة فقد ، ذكر غير واحد من المؤرخين أن الإمام عبد الوهاب بعث ألف دينار إلى أعوانه بالمشرق ليشتروا بها كتباً ويرسلوها إليه ، فاتفق رأيهم على أن يشتروا بها كلها ورقاً وأن ينسخوا له فيها كتباً وقد فعلوا ، ولما بعثوها إليه وكانت مكتبة عظيمة قيمة سهر لدراستها والاطلاع عليها حتى فلاها كتاباً كتاباً وورقة ورقة فقال الحمد لله الذي علمني جميع ما فيها إلا مسائل ، ولو سئلت عنها لأجبت قياساً كما قررت في السكتب .

أحسب أن ما تقدم يكفي لإعطاء صورة عن الإمام عبد الوهاب واضحة المعالم ، والحقيقة أن غياب الإمام عن عاصمة الدولة ومركز الحكم مدة ستين سنوات دون أن يخاف هو على مركزه ودون أن يحدث أى شغب يستدعى حضوره ودون أن يحدث ما يعكر الأمن والسلام ، ودون أن يتمتع هو بلذة الحكم المباشر ومظهر السلطان الذى لا تتم الأمور بدونه ، ويكتفى أن يعيش كما يعيش أى مدرس في قرية نائية من أطراف الدولة دليل كاف على ما تتمتع به تلك الأمة من حكم رضى عنه وسعدت به ، وما يتمتع به موظفو

الدولة من نزاهة واستقامة وعدل . ولا شك أن صلاح الرعية إنما يتم بصلاح الراعى .

٣ — الإمام الثالث للدولة الرستمية هو أفلح بن عبيد الوهاب بن عبد الرحمن : بايعه الناس بعد وفاة أبيه بالاختيار العام دون استخلاف أو وصية أو ترشيح وقد بايعوه مباشرة بعد وفاة الإمام دون تردد أو منافسة من أحد فقد كانت شخصية أفلح وعظمته وتفوقه فى جميع الميادين أدعى إلى أن تتجه إليه جميع الأنظار ، وأحق بأن تتضاءل أمامها كل المواهب والكفاءات . ولذلك فقد تمت له البيعة فى يسر وسهولة ، لأن أحداً لم تحدته نفسه بأنه أو غيره يحلم أن تسند إليه الإمامة وأفلح موجود .

وأفلح نفسه لم يشعر بهذا الانتقال من شخص عادى بين الناس إلى إمام يرجع إلى أمره ونهيه جميع الناس . ذلك لأن عظمته وكفاءته ، وقوة شخصيته ومحبة الناس له والتفافهم فى حوله وإعجابهم بكل أحواله جعله يتقدم إلى منصب الإمامة متئداً مطمئناً مطمئناً .

أخذ العلم عن أبيه وجده ومن عاصرهما من كبار العلماء حتى بلغ درجتهم وتفوق على بعضهم ، وأصبح من الأئمة المعدودين والعلماء المشهورين ، انفرد بأقوال فى علم الكلام اعتبر من أجلها إماماً .

وعندما وثقت به الأمة وأسلمت إليه مقاليد الدولة ، وشرفته بالبيعة تلقى الأمانة كما يتلقاها المؤمن الحريص ، وكان لحظه العظيم قد تركها له الإمام السابق كأحسن ما ترك دولة مسلمة على أمة مسلمة ، دولة عادلة على أمة دطيعة ، تخشى الله ، وتخضع للحق ، مستقرة فى كنف العدل ، آمنة فى حكم يقدر المسئولية ويتحمل أعباءها ، ومهال وموظفين أمناء نزهاء ، يخافون الله

أكثر مما يخافون القانون ويخشون حساب ضمائرهم أكثر مما يخشون حساب الناس ، ويفرون من حرجهم أكثر مما يفرون من سوط الجلاذ .

لهذه الأسباب لم تعترضه أية صعوبة ، ولم تقم في وجهه أية مشاكل ، فضى بنفس السيرة وعلى نفس الطريقة : مساجد عامرة ، ومدارس غاصة ، وأسواق مزدهرة ، وأرض معمورة ، ودور قضاء مهجورة ، فإن الظلمة والمعتدين - على قلتهم - يردون الحقوق قبل أن تصل الشكاوى إلى رجال القضاء ، لأنهم يعرفون أن رجال القضاء في تلك الدولة أذكي من أن يخذعوا ، وأقنع من أن يطمعوا ، وأعدل من أن ينتحازوا ، وأخشى لله من أن يجهلوا ، وأعظم في نفوسهم من أن يداهنوا أو يسكتوا وهكذا مرت على الأمة خمسون سنة تحت إمامته في عهد يمثل الحكم الإسلامى النظيف حق تمثيل .

قال الباشا البارونى فى الأزهار الرياضية صفحة ١٦٦ ما يلى : -
« فبادروا فى يوم وفاته إلى ابنه أفلح الذى كان مترشحاً للإمامة بأعماله العالية ، وعلومه ومداركه الواسعة ، فبايعوه وسلموا له مقاليد الأمور بدار الإمارة ، قطعاً للخلاف ، على أن يسير فيهم بالكتاب والسنة وآثار السلف الصالح فقبل منهم ذلك » .

وقال الباشا البارونى فى الأزهار صفحة ١٨٠ ما يلى :
« فبسط العدل فى الرعية ، وسار فيهم سيرة مرضية ، واستقامت له الأحوال ، وساعدته الأقدار ، فاقتفى سيرة أبويه ، ولم ينقم عليه أحد فى شيء من أحكامه ، وكان من المهابة والفروسية وغزارة العلم والحلم والكرم والإقدام والورع بمنزلة بكل عن وصفها اللسان » .

ونقل الباشا البارونى فى الأزهار عن ابن الصغير ص ١٨١ ما يلى :

« فلما ولى أفلح أخذ بالعزم والحزم ، ونشأ له من البنين ما لم يكن لغيره من قبله ، وطاوله الصيت ، وأتته نفوسة الجليل يسألونه أن يقدم عليهم من يقولى أمرهم ولم تكن الشراة تطعن عليه فى شىء من أحكامه ، ولا فى صدقاته ، ولا فى إعشاره » .

وقال الأستاذ السكعاك فى كتابه القيم : موجز التاريخ العام للجزائر ص

١٢٤ ما يلى :

« لما تولى شمر عن ساعد الجدد ، وأظهر من العزيمة والحزم ما قطع به دابر المتطلعين ، واستعمل السيف فى مقام السيف ، واللسان فى مقام اللسان ، واستمال القلوب بالمعروف والقول الحسن ، والعمل البار ، والعدل والإنصاف ، وكان إذا وعد وفى ، وإذا قال عمل ، وإذا أمر بالإحسان ائتمر ، يقف عند نواهي الدين ، وبقيم الحدود ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، وقد وردت فى كتب التاريخ مناقب فى شأنه تدل على علو كعبه فى السياسة وحبه للإنصاف والعدل ، وإجرائهم ما حتى على ذويه . ناهيك أنه تمكن من تأليف القلوب بعد افتراقها ، والتوفيق بين مصالح المذاهب المتنافرة ، والقبائل المتشاكسة ، وإرجاع الدولة إلى ما كانت عليه من العمران والحضارة » .

أحسب أن الصور السابقة لا تعطينا كامل الخطوط التى تحدد معالم صورة هذا الإمام العظيم . ولعل الإمام أفلح يعتبر أعظم من تولى الإمامة فى المغرب الإسلامى وأنا حين أطلق هذا الحكم أضع فى الاعتبار مراعاة تطبيق أحكام الإسلام وتنفيذها مع طول المدة وإقبال الدنيا . وفيضان الثروة بين جميع الطبقات . وبناء على هذه الأسس فإن الدارس لتاريخ الحكم

في المغرب لا يجد من جمع — بين غزارة العلم ودقة الفهم ، والاطلاع الواسع على التشريع الإسلامي والبراعة في النقد والأدب ثم الشجاعة التي تضرب بها الأمثال . وقوة الإرادة والتصميم . وحضور الذهن عند الأزمات ومراعاة العدل والإنصاف ومراقبة الله في جميع ما يأتي وما يذر ، مع طول مدة في الحكم بلغت نصف قرن أو يزيد والأمة في رغد ورفاهية وأمن وسلام داخلاً وخارجاً — مثل ما جمع أفلح بن عبد الوهاب .

٤ — الإمام الرابع في الدولة الرستمية هو أبو بكر بن أفلح بن عبد الوهاب .

بايعه الناس بعد وفاة أبيه على شيء من الاستعجال والتسرع ويبدو أن الاستشارة لم تكن كاملة . فقد كان بعض الناس غير راضين ، إلا أن أصوات المعارضة القليلة قد ذابت في الكثرة الغالبة وصمتت بسرعة ، ودخلت فيما دخل فيه الناس فوافقت الأغلبية في اتباعها وبايعت . كان أبو بكر مع علمه الغزير . ومعرفته بالأدب وفنونه وشغفه بمجالسة العلماء والأدباء — جم الحياء مع دين وورع وتقى ، متواضعاً سريع الثقة بالناس . ودوداً عطوفاً محباً لجميع الناس . ولعل هذه الصفات والأخلاق الكريمة هي التي جعلت الأكثرية الغالبة تميل إليه وتحميه وتسارع إلى مبايعته بالإمامة . وهي أيضاً نفس الصفات والأخلاق التي جعلت بعض الأصوات ترتفع بالمعارضة خشية على الدولة من هذه الأخلاق الكريمة نفسها .

وكافي لأبي بكر صهر يعرف بابن عرفة يملك كثيراً من صفات الزعامة فهو جميل وقوى وغنى وكريم حسن التصرف ذو لباقة في الحديث ومعرفة بأساليب الدهاء والسياسة يحسن استمالة قلوب الجماهير . وكان ابن عرفة

يعتقد أنه إذا آتت الإمامة إلى أبي بكر فسوف يكون الرجل الأول في الدولة يتصرف فيها وفي شئونها كما يرى ويجب .

وفكر في تنفيذ ذلك بالفعل فقد حاول أن يعزل أبا بكر عن الناس وأن يحيطه بالمظاهر التي يحاط بها الملوك فيبتعد عن شعبه ويبتعد عنه لشعبه ، ويكون هو الواسطة بين الجميع ، غير أنه لم يقدر له النجاح في هذا المسعى . واستمسك الإمام بإدارة الإمامة في حزم ، وباشر اختصاصاته ورقابته ورعايته للدولة باهتمام ، فلما فشل ابن عرفة في حمل الإمام على هذا المسلك ولم يتحصل لنفسه على هذا المركز في الدولة . عاد إلى نفسه فأضفى عليها مظهر العظمة واتخذ لنفسه حشماً وأتباعاً وطلاب حاجات وكان إذا تحرك تحرك في موكب عظيم ليظن الناس ومن لا علم له أنه بلغ مبلغاً كبيراً في الدولة .

وفي هذه الأثناء رجع أبو اليقظان من المشرق فوجد الأمور على أحسن ما يرام والدولة في استقرار والأمن مستتب فسر بذلك وانشرح له واستعد للقيام بواجبه في إعانة أخيه على مهام الدولة وقد فعل ولما رأى الإمام أبو بكر ما يحل به أبو اليقظان من خبرة ودراية وكفاءة ومقدرة على حل المشاكل ، وأساليب اقتبسها من أنظمة الدول في المشرق وثق به وأسند إليه كثيراً من الأمور فكان يقوم بها في كفاءة وجدارة مستحقاً التقدير ، وأصبح الإمام وأهل الشورى والناس جميعاً يلمحون بالثناء على أبي اليقظان ، فقد تحصل على المكان الذي كان يحلم به ابن عرفة وهكذا ثارت عوامل الغيرة عند ابن عرفة وصار يميل إلى الشقاق : ويظهر النقد على الإمام ويدعو إلى الفتنة وكان الإمام لا يرى في ذلك كبير بأس ، فهو يعرف أخلاق صهره وغرامه بالمظاهر . ولكن بعض أهل الصلاح والإصلاح في الدولة رأوا أنه يجب أن

يصلح هذا الانحراف قبل أن يقسع وأن يسترضى ابن عرفة حتى لا تسكون
فطنة وعقدت اجتماعات تمهيدية للموضوع فتشدد ابن عرفة في موقفه أولاً
واستمسك ثم لان .

وكان هناك دعاة فتنه يعملون في السر وكانوا يحاولون توسيع شقة
الخلافا بين الإمام وابن عرفة فلما تحركت يد الصلح وبدأ لهم أن ابن عرفة
سوف يستجيب امتدت منهم يد آئمة في غلس الظلام فاغتالت ابن عرفة
واحتضنت أتباعه واتهمت أبا بكر باغتياله ودعت إلى المطالبة بثأره . وفشل
بطبيعة الحال كل مجهود يرمى إلى الصلح ووقف الناس في القضية الباجية على
ثلاثة مواقف :

١ - أتباع ابن عرفة وقد احتضنهم دعاة الفتنه الذين كانوا يعملون في
السر وتبنوا المطالبة بثأر ابن عرفة وقادوا المعارك في ذلك .

٢ - أنصار أبي بكر وهم الذين وثقوا في أبي بكر وصدقوه في براءته
ولم يصدقوا - وهم أعرف الناس به - أنه يتنازل إلى تدبير المؤامرات ومباشرة
الاغتيال .

٣ - المحايدون وهم الذين لم يتضح لهم الموقف فوقفوا بين الفريقين موقفاً
حيادياً لفترة طويلة حتى اتضح لهم الموقف فانضموا إلى فريق أبي بكر .

لم يتخل أبو بكر عن الإمامة ولم يغلب عليه دعاة الفتنه ولكنه مع
ذلك لم يستطع أن يقوم بأعبائها في ذلك الجو المشحون بالبغضاء والحقـد
والاستعداد للقتال حتى قدم أحد الزعماء فعـمل على إصلاح الأمر ودعا أبا بكر
إلى أن يعتزل الإمامة وأن يتولاها أبو اليقظان فاستجاب أبو بكر لدعوة

الصلح والإصلاح ورضى أبو اليقظان بالبيعة مع اشتراطه على الجميع أن لا يثارت الأحداث السابقة وأن لا يطالب فيها بثأر أو دم .

وستجد أيها القارئ الكريم بعد هذا الفصل مناقشة طويلة لأحداث هذه القضية تحليلاً لأسبابها ودوافعها ونتائجها والفاثمين بها وغفلة المؤرخين فيها عن الحق ولا شك أن الموضوع فيه جوانب غامضة لم تتضح بعد .

٥ - الإمام الخامس للدولة الرستمية هو أبو اليقظان محمد بن أفلح: ذهب لأداء فريضة الحج في عهد والده أفلح فاعتقلته الدولة العباسية ونقلته إلى بغداد أو حيث سجن . ولما أطلق سراحه ورجع إلى وطنه وجد أباه قد لحق بالله والناس قد بايعوا أبا بكر والأمور هادئة راضية فاستبشر خيراً واستعد للقيام بواجبه وكان قد عرف كثيراً من الأساليب الجديدة في نظم الإدارة والحكم وهو في العراق فأحب أن تستفيد الإمامة بتلك التجارب القيمة وأسند إليه الإمام أبو بكر كثيراً من المهام صار يشرف عليها ويباشر العمل فيها ويعرض نتائج جهده على الإمام مرتين في اليوم إلى أن وقعت فتنة ابن عرفة التي استقرت نفاصلها فيما بعد واتهم فيها أبو بكر فتوقف أبو اليقظان في الموضوع واتخذ جانب الحياد لمدة طويلة وتبعته نفوسه في ذلك الموقف حتى استبان الحق وعرف أنها مكيدة يراد بها القضاء على أبي بكر والدولة فانضم إلى أبي بكر ثم جرى صلح اعتزل فيه أبو بكر الإمامة واختار الناس أبا اليقظان فقبل منهم البيعة واشترط عليهم أن لا يثارت الحزازات السابقة . ودخل المدينة وشمر عن ساعد الجد والنشاط والعمل وطال عهد أبي اليقظان . وكان عهداً مزدهراً شبيهاً بعهد أبيه أفلح وجده عبد الرحمن استقرت فيه الأمور واستراح الناس وكثرت الثروة ، وهرمت البلاد وتوفرت مجالات الحياة لجميع الطبقات

وقد طال عمر أبي اليقظان حتى قارب المائة وعندما حان أجله كان أكبر أولاده اليقظان في الديار المقدسة لأداء فريضة الحج ، وكان ولده يوسف على رئاسة جيش يحرس قافلة تجارية كبرى آتية من المشرق فتوفي الإمام وأكبر أولاده غائبان .

قال عنه الباشا الباروني في الأزهار الرياضية صفحة ٢٣٩ ما يلي :
« وثابر رضى الله عنه على إصلاح ما انتم في أثناء تلك الحروب حتى عادت الناس إلى خطة سيرها القديم في سبيل العماره والتجارة والبنيان ، واشتغلوا بطلب العلوم وقضاء ما فاتهم في فترة السنين القاسية التعيسة - من العبادة ، نادمين على ما اجتروا من السيئات ، وما أضاعوه من الأموال ، وما سفكوا من الدماء » .

ويقول الباروني في الأزهار صفحة ٢٤٠ ما يلي :
« وأسرع السير في التقدم في الإصلاح ديناً ودنيا ، حتى أجمع الناس قاطبة على حبه ، وولايته ، والرضا بأحكامه ، وبلغ في الفضل والعدل والورع والزهد مع حسن السيرة ، مبلغاً عظيماً استحق به تشبيه ولايته بولاية جده الإمام عبد الرحمن رضى الله عنه ، إذ كان كمنه في الاتفاق على ولايته ، واشتغل رحمه الله بتجديد ما اندرس من الدين بكمال جد واجتهاد - يباشر إلقاء الدروس وتعليم العلوم للطلالين بنفسه طلباً للأجر وقياساً بالواجب ، وترغيباً للغير ، فشدد إليه الرجال من كل الأقطار فقلد الواردين عليه من جواهر فنونه ، وغرائب علومه ، العقود الثمينة ، وكانت من اليد الطولى والقدح المعلى في سائر الفنون حتى صاروا قادة ومصاييح يهتدى بهم في الآفاق في دجى المشكلات ، وبلغوا إليهم في المضلات وامتنأت هموم ولايته

بالعلم والعلماء والزهاد وأصحاب الكرامات ، خصوصاً جبل نفوسة كما هو مبسوط في كتب السير كلها ، ومع ذلك لا يفتر عن الانشغال - وإقامة حكومته واستراحته في التعليم ومصالح دولته - بالتأليف والتحرير ومكاتبة العمال والولاة وجموع الرعية . بالنصائح المرشدة والحكم النفيسة والرد على المخالفين في سائر الفرق والمذاهب حتى أنه ألف في الاستطاعة وحدها أربعين كتاباً .

ونقل الباروني عن ابن الصغير في الأزهار صفحة ٢٤٢ ما يلي :
« وكان أبو اليقظان عاش من السنين مائة أو نحوها وكان عمره في إمارته نحو أربعين سنة ، ولحقت أنا بعض إمارته وأيامه ورأيتُه وحضرت مجلسه » . ويقول ابن الصغير بعد أسطر : « وكان إذا جلس للناس وأمرهم بالجلوس لم ينطق أحد بين يديه إلا أن تسكون ظلامه ترفع إليه » .

وكان زاهداً سكيناً ورعاً ، ناسكاً ، ويقول بعد أسطر : « وكان إذا ضرب سراقته وأنته وفودهم - أي وفود نفوسة - لا يناجون الليل حول فسطاطه شأنهم التهليل والتكبير من أول الليل حتى الفجر فإذا صلوا الفجر معه ضربوا بأنفسهم إلى الأرض فناموا » .

قال الأستاذ عثمان السكعك في موجز التاريخ العام للجزائر صفحة ١٩٨ ما يلي : -

« بوبع أبو اليقظان بالإمامة فارتسم لنفسه خطة مثلى أساسها العدل وقرارها الحزم والعزيمة فإنه داوى الجروح بتقديم من هو أهل بالوظائف العليا ، وأخذت إصلاحات ذات شأن في نظام المدينة ، وسير الأمور بلين

عليه سمة الاعتزام ، ومن مناقبه التي تذكر فتشكر أنه كان ينتصح لنصائح الناصحين ، إن رأى فيها صلاحاً ، ورآها بعيداً عن الأغراض ، غير مشوبة بالغايات . وبعد أسطر يقول : « كذلك استقامت أحوال الحكومة ، ونهضت الأمة نهضة شاملة ، وباتت ترفل في حلل العز والسيادة والأمن والسلم وال عمران والحضارة . ومناقب أبي اليقظان كثيرة لا يسعنا المقام لذكرها واحدة واحدة وقصدنا الإيجاز لا الإحاطة ، وحسبنا أن نقول إنه لما توفي كانت تركته سبعة عشر ديناراً » .

إننى أحسب أن خير ما يصور لنا أبا اليقظان ذلك الإمام العظيم الذي لا أستطيع أن أضعه في صف مع الخلفاء الراشدين إجلالاً لخيرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفقاً لمرتبتهم عن مراتب جميع الناس مهما كانوا لشرف الصحبة وإنما أستطيع أن أعده في نسق من خيار الأمة الذين تولوا الحكم فنهجوا به الطريق السمحة التي دعا إليها الإسلام .

لقد نقل المؤرخ الصادق ابن الصغير المالكي وهو معاصر لأبي اليقظان هذه القصة التي سيهزأ بها أولئك الذين ملأت المادية أذهانهم وشغلت أفكارهم وعقولهم فاحتلت عندهم الموازين والقيم وذابت في نظرهم السدود والحدود بين الحلال والحرام .

قال ابن الصغير^(١) « قال لى أحمد بن بشير قال لى سابق خرج أبو اليقظان يوماً إلى منزله الذي كان اختصه (بتسلون) يتفقد سائمته وعبيده وأبطاً في انصرافه إلى أن دخل الليل . قال أبو سابق فخططت عن

(١) انظر الأزهار الرباعية صفحة ٢٥٠ .

الفرس وربطته على مدرة ، وخرجت لآتى له بعلفة من عند حريف له ، فأنقيته وقد أغلق حانوته ، فملت إلى بيت المال ففتحتته وأخذت منه علف الفرس وأغلت عليه ، ثم رجعت إلى موضعي في القصر ، وإذا بأبي اليقظان قد افتقدني مرة بعد أخرى ، فلما رأته صعد إليه خادم فأخبره بمجيئي ، فقال له : اصعده إلي . وكان يستريح إلى ويسألني عن أخبار الناس ، فقال : وما حبسك ؟ وما أبطأ بك ؟ فأعادته خبر الحريف وغيبته ، وفتحت بيت المال وأخذت العلف منه ، وتعلمني إياه الفرس ، فقال : آه يا أبا سابق ؟ والله لانا م محمد ولا آكل ولا أشرب حتى تمضي وترد في بيت المال ما أخذت منه . قال : فضيت والله في ليلتي تلك حتى أتيت حربي . وأخرجته من داره وأخذت منه علف الفرس ، ثم مضيت وانتزعت المخلاة عن الفرس فكلت ما بقي وأتممت ما أخرجته من بيت المال ، ورددته فيه وعلقت ما بقي على الفرس ومضيت إليه ، فأصبعته جالساً ينتظرنى .

فقال : ما وراءك يا أبا سابق ؟ فأعلمته بما صنعت فقال لي : أحسنت ؟ أما الآن فاجلس . فأت أبو اليقظان فكل شئ وجد له من العين في تركته سبعة عشر ديناراً . وكان لأبي اليقظان في إمارته وقائع صارت تاريخاً لموالد الناس .

ويعلق الباشا الباروني على هذه النصة فيقول في الأزهار صفحة ٢٥١

ما يلي :

« هذه حاله ، وقد حكمها من تاهرت بالمغرب إلى أراضى سرت بالمشرق . فمكذا والله العدل ، وهكذا الزهد والورع ، وهكذا كان الخلفاء الراشدون من أصحاب النبي ﷺ أهل الإنصاف والفضل . »

إن رجلاً يحكم ما بين تاهرت وسرت مدة أربعين عاماً لا يحيز لنفسه أن يستعير من بيت المال صاعاً من شعير عشاء للفرس على أن يرده في اليوم التالي ثم عندما يقوفاه الله ويحصي الناس التركة التي خلفها إبان حكمه لأغنى منطقة في المغرب الأوسط مدة أربعين سنة يجدون أن تلك الثروة لا تتجاوز سبعة عشر ديناراً .

لاشك أن أى إنسان ولو كان يحترف المسألة يعيش أربعين سنة في ذلك العهد المزدهر يستطيع أن يوفر أكثر من هذا المبلغ الذي لا يمكن أن يعتبر تركته لحاكم أبداً اللهم إلا أن يكون حاكماً مسلماً حريصاً على الإسلام .

إن رجلاً بهذا الوصف حقيق أن يضرب به المثل في حياة البشرية الطويلة وأن يجعل قدوة لمن تسند إليهم الأمم أمورها وتكمل إليهم رعاية مصالحها وتوجيه سياستها .

٦ — الإمام السادس للدولة الرسنمية أبو حاتم يوسف بن محمد .

في أواخر أيام أبي اليفظان خرج اليفظان إلى المشرق حاجاً أما أبو حاتم يوسف فقد كلفه أبوه بالخروج إلى ملاقة قافلة كبيرة آتية من المشرق ليتولى حراستها حتى تصل سالمة وفي غياهما ، اليفظان في الحج ويوسف في حراسة القافلة ، توفي الإمام رحمه الله فقشاور الناس فيمن يتولى الإمامة بعده فالت الأغلبية إلى أبي حاتم ، ونادى الناس بإمامته وهو غير موجود فلما رجع لاقته الجماهير بالبيعة على أبواب المدينة إلى المسجد ، وتسامع الناس بذلك فبادروا إليه ، وأجمعوا على بيعته من كل أنحاء البلاد التابعة للدولة الرسنمية . وعزم الرجل أن يقتنى أثر سلفه الصالحين وأن يسير في النهج القويم الذي ساروا عليه . غير أن زوايع حدثت فقد سعى بعض المفسدين (٦ — الإبانة)

إلى الفتنة . ودعوا إلى الثورة وهجموا على العاصمة على حين غفلة . فاضطر الإمام إلى الخروج منها ثم استغل دعاة الفتنة عم الإمام فدعوه إليهم وعقدوا له البيعة مع أن بيعة أبي حاتم في أعناقهم وفي عنق عمه أيضاً . وعندما استفاق أبو حاتم من ذهول المفاجأة وجمع أنصاره حوله كثر بهم على المدينة ووقعت بين الإمام وبين دعاة الفتنة عدة وقائع ذهبت فيها دماء وأموال ثم بدأت كفة الإمام ترجح وبدأت تظهر الحقيقة للذين انجروا وراء الفتنة دون وعى فصاروا ينفصلون عنها ويعودون إلى الإمام وأخيراً دعا دعاة الصلح فاستجاب له الطرفان وبقيت الإمامة بيد صاحبها الشرعى وذهب عم الإمام إلى زواغة وخضع أصحاب الفتنة لنظام الدولة - ودخل الإمام أبو حاتم إلى عاصمة الإمامة وقد أجمعت عليه الأمة بعد الفتنة كما أجمعت من قبل واجتمعت على محبته القلوب وعرف الناكثون فضله عليهم . فسار بالدولة كما سار بها أسلافه الصالحون . قال الباشا البارونى فى الأزهار صفحة ٢٦٦ ما يلى :

« فلما وصل إلى باب المدينة ازدحم الناس من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن يساره فبايعوه فما وصل المسجد الجامع إلا وقت الظهر فأصعدوه المنبر وبايعوه وكبروا حوله » وبعد أسطر يقول : « فتمت له البيعة وخلصت له الإمامة ، بدون إنكار ولا معارضة من أحد ، إلا ما كان خفياً » .

وبعد أسطر يقول : « فشم أبو حاتم لمباشرة أموره عن ساق الجد وسار سيرة أسلافه الصالحين ، واستقام له الأمر ، وأجمع الناس على ولايته وسلمت بواطن العامة من جهته » .

وقال الأستاذ عثمان السكعك في موجز التاريخ العام للجزائر صفحة ٢٠١

ما يلي : « لما رجع أبو حاتم إلى مدينة تيهرت اقتنى سيرة أبيه خطوة خطوة ،
فقدم للوظائف من يستحقها ، فرجعت الأحوال إلى أحسن حال ، ورتبت
الأمر ، واستتب الأمن وانتصب النظام ، وكان قد لحق المدينة شيء من
الفساد في الأخلاق فشر صاحب الشرطة عن ساعد الجد ، وقع عمل
المفسدين ، وقطع دابرهم ، واستأصل جرثومتهم وأقام للفضيلة صروحها
العوالي ، وتبع قطاع الطرق والمتصجين للسابلة ودمرهم تدميراً وقضى عليهم ،
وكان القضاء جارياً على أحسن حال ، والعدالة منشرة الصدر ، وضاعة
الجبين ، والناس قد عادوا إلى ما كانوا عليه من أسباب الراحة والحضارة .
ولم يزل أبو حاتم على ذلك إلى أن غدر به بعض أبناء أخيه فقتلوه لحاجة
في أنفسهم » .

لعل القارئ الكريم يرى أن الصورة التي وضعها أعلام المؤرخين لهذا
الإمام تناسب مع الصور التي عرضناها من قبل لأسلافه الأئمة السابقين
وتتلاءم معها تلاؤماً تاماً .

ويكاد الإباضية يجمعون على أن هؤلاء هم الأئمة المعترف بهم في الدولة
الرسمية ويتوقف بعضهم في أبي بكر . أما غير هؤلاء الأئمة ممن تولى الحكم
فيها فلا يزيد عن أن يكون مدعياً للحكم لا يجرؤ أن يدعى لنفسه الخلافة
كأبن مسالة ، أو في موقف البغاة كيعقوب ثم ندم وتاب ، أو يكون في حكم
السلطين والملوك كاليقظان آخر حكام الدولة الرسمية .

الإمام أبو بكر بن أفلح

بعد أن تحدثت عن أئمة الدولة الرستمية أحببت أن أخصص فصولا أناقش فيها مع القارئ الكريم بعض الأحداث التي نسبت إلى هذا الإمام العظيم والتي أعتقد أن فيها كثيراً من الحوادث والوقائع يغلب الشك في صحتها أو صحة نسبتها إليه .

لقد علمت أيها القارئ الكريم أن أبا بكر وصل إلى مركز الإمامة بطريق البيعة العامة والأغلبية الساحقة والمصادر التاريخية التي بين يدي متفقة على ذلك وهي تذكر أصواتاً قليلة خافتة قد عارضت ولكنها ذابت في وسط السكرة الغالبة وتمت له البيعة العامة .

ولم يتحدث التاريخ عن أصحاب تلك الأصوات فيما بعد ، ولم نجد لهم أى ذكر في أحداث المؤامرة التي دبرت فيما بعد للقضاء على أبي بكر ، وعلى الدولة الرستمية من ورائه .

يقول ابن الصغير المالكي عن هذا الإمام :

« كان سمحاً جواداً لين العريكة يسامح أهل المروءات ، ويشايهم على مروءتهم ويحب الآداب والأشعار وأخبار الماضين » .

ويبدو لي أن هذه الصفات هي التي جعلته محبوباً من الجماهير ، وهي نفس الصفات التي جعلت بعض المتشددین يعارضون بيعته خوفاً عليها وعلى الدولة منها .

وعلى كل حال فقد تمت البيعة وأسندت إليه الإمامة وبدأ عمله العظيم .
وهنا تذكر المصادر التاريخية شخصية أخرى تربطها بالإمام علاقات .

فقد ذهبت بعض تلك المصادر تقول : إنه كان يوجد في تاهرت رجل اسمه محمد بن عرفة وأنه كان وسيما جميلا سمحاً جواداً وأنه وفد على بعض ملوك السودان فأعجبوا به وأطروه وأنه كان ذا هيئة وفروسية وأنه كانت له أخت أجمل منه تزوجها الإمام أبو بكر وأنه لذلك كان لا يحب عنه وأن الإمارة أصبحت بالاسم لأبي بكر وبالفعل لابن عرفة ، وأن ابن عرفة إذا ركب من داره يرد أبا بكر مشى بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن يساره أمم من الأمم ، وأن أبا بكر كان لا يرى شيئاً ولا يعرف شيئاً فغارت قلوب الحاشية وحقنوا على ابن عرفة وأصبحوا ينتظرون فرصة للوصول إلى أبي بكر ، وذات يوم حانت تلك الفرصة فقد استدعاهم للمشاورة في أمر من الأمور فأوغروا صدره على صهره ابن عرفة ، وذكروا له المواقف التي يسير بها ابن عرفة والعظمة التي يستمتع بها بين الجماهير ، وأنه في إمكانه أن يراقب ذلك من قصره ليمتأ كد من حقيقة الحال ، ونقب أبو بكر فتحة في قصره لينظر منها إلى موكب ابن عرفة في مجيئه وذهابه ورأى ذلك بنفسه ، فاستشار أصحاب المؤامرة في الخطوة التالية فأشاروا عليه أن يدعوهم إلى نزهة منفردين وأن يبقيا هناك يوماً كاملاً حتى إذا جاء وقت صلاة المغرب وقام ابن عرفة إلى الصلاة أشار إلى عبد من عبيده بقتل الرجل وتمت المؤامرة على ما خطط هذا المستشار . فلما قتل ابن عرفة زمله العبد في ثيابه . وذهب به مع الإمام إلى مكان فأخفوا فيه الجثة ، ورجع الإمام كأن شيئاً لم يقع ، وتخير أهل ابن عرفة حين أبطأ عنهم في أول الليل فبعثوا جراسيسهم إلى قصر الإمام فعلموا أن الإمام موجود وأن ابن عرفة ليس معه ، فباتوا على هم وقلق وفي الصباح تفرق الناس للبحث عن ابن عرفة حتى وجدوا أثر الدم وتبعوه حتى أخرجوا الجثة من المغارة التي خبئ فيها وأركبوه فرسه وجاءوا به إلى المدينة يمسكه بعضهم ويدعون إلى الأخذ بثأره من أبي بكر .

هذا ملخص القصة وقد انساق إلى تصديقها بعض من عنى بالكتابة عن الدولة الرسومية في هذا العصر ، أمثال الزعيم الكبير الشيخ سليمان باشا الباروني ، والأستاذ محمد علي دبوز — ويبدوا أن كلا الكاتبين قد أخذوا القصة مسلمة وإن كان كل واحد منهما كان في تصديقها وتعليقها وروايتها متأثراً بجانب معين من ظروف الحياة التي يعيشها .

فالزعيم الباروني وقد كان قريباً من قصور السلاطين في تركيا وذا معرفة بما يدور فيها من مؤامرات ويحك من دسائس ويجرى من أحداث ، وبكثرة ما يسمع من ذلك كان يسهل عليه تصديق أمثال هذه المؤامرات وغيرها ولذلك فهو لم يناقشها بحس المؤرخ الذي يحاول أن يعيش ظروف الفترة التي يؤرخ لها . وإنما ناقشها بالإحساس الذي يعيش به فعلا في تركيا في ذلك الحين .

وقد كانت المكائد تجري من حوله في كل لحظة . فرواها متأثراً بما يعرفه من تدبير السلاطين لاغتيال من يخشونه على عروشهم ويعلمها بنوعية الأحداث التي تقع في قصور تركيا وما يشاهدها من القصور الملكية المستبدة الباطشة في حال القوة ، والمكائد في حال الضعف .

أما الأستاذ محمد علي دبوز فقد كان يفتش عن المرأة في هذه القصة كما هو شأنه في كثير من أحداث التاريخ وقد تناول بقلمه الغزل أم أبي بكر ودخل إلى مخادع أفلح ، وسهر مع حريم ذلك الإمام العظيم وعزا مسئولية فشل أبي بكر في الحكم حسب نظره — إلى تلك الأم التي حاول أن يجعل منها دمية يلعب بها أفلح في بيته عندما يتجرد من مهام عمله العظيم في الليل أو في النهار ، ولا شك أن دور تلك الأم — التي لا نعرف عنها إلا القليل الذي

لا يعطى عنها أية صورة - ليس بذى أثر كبير فى شخصية أبى بكر .
ويعزو أيضاً جانباً من فشل أبى بكر - حسب نظره - إلى البيئة الثرية الرخية
التي عاش فيها أبو بكر وأغفل أن تلك البيئة نفسها هى البيئة التي عاش فيها
أخو أبى بكر : أبو اليقظان وأبو يوسف يعقوب . عندما كنت أراجع
مصادر التاريخ ، وأجد هذه القصة فى بعضها كانت تساورنى كثير من
الشكوك فى جملتها وتفصيلها - فلما عرّضت على الكتابة فى الموضوع سنة
١٩٦٧ كتبت رسالة إلى المؤرخ الكبير شيخنا أبى اليقظان إبراهيم
للاستفهام وهذا نص الرسالة بعد الديباجة :

« لقد أطلت التفكير فى إمامة أبى بكر بن أفلح من أئمة الدولة
الرستمية وفى قضية قتله لصهره ابن عرفة غيلة ، حسباً هو مذكور فيما بين يدي
من المصادر ، وقد سيطرت على فى القصة كثير من الشكوك ، وأجدنى فى
دخيلة نفسى غير مصدق بها رغم أنى لا أملك دليلاً على هذه الشكوك ،
وببدولى أن القصة دخيلة على سيرة الأئمة ، وإنها صورة لوقعة البرامكة
الشهيرة قست عليها ونسجت على منوالها وجعل أبطالها من الدولة الرستمية ،
فإن الذى يُعرف من أخلاق أبى بكر إنما هو اللين والعطف ومقابلة الدين ،
فكيف يسمح لنفسه بالاغتيال لأعز صديق ، ولأقرب الناس إليه ، وعلى كل
حال فأنا أشك فى الحادثة وأحسب أنها إما أن تكون أدخلت فى تاريخ
الدولة الرستمية بطريق الخيال ، وإما أن يكون الذين اغتالوا ابن عرفة هم
بعض حساده والناقين عليه ، وأن يكونوا هم الذين سعوا فى نسبتها إليه حتى
يشور الناس ، وقد نجحوا فى مكيدتهم ، ولعدم تحقق نسبتها إليه وقفت
نفرة وأبو اليقظان فى القضية موقف الحياد ، وإلا فكيف يحق لهم السكوت
عن الانحراف بدين الله .

على كل حال أنا الآن في تحرير هذا الموضوع ، وأرجو أن تبعثوا لي برأيكم ورأي أفلح^(١) في الموضوع حتى أطمئن إلى ما أعتدده من الآراء ، فإذا كان رأيكم متفقاً مع هذه القصة التاريخية فإنني سوف أبعده هذه الشكوك عن نفسي وأستسلم إلى ما قاله المؤرخون ، والله سبحانه وتعالى هو المطلع على الغايات .

وقد أجباني الأستاذ الجليل الشيخ أبو اليقظان رحمه الله برسالة مؤرخة ٢١ من المحرم سنة ١٣٨٧ (١ مايو سنة ١٩٦٧) وهذا نصها بعد الديقاجة : « وبكل سرور تسلمت رسالتكم الكريمة مؤرخة في ١٦/٤/١٩٦٧ المؤرخ ٤ المحرم ١٣٨٧ ، وفيها تسألون عن قضية الإمام أبي بكر وابن عرفة الشائكة . نعم لقد وقعت في نفسي الحيرة بها منذ القديم ما وقعت لكم هذه الأيام ، وقد عظام هذا الأمر على قلبي ، ورمت أن أسأل منها الإمام الأديب أبا بكر من بين الأئمة العظام - سل الشعرة من العجين - فكان سؤالكم هذا مدعاة للبحث عنها ، فأحلت لدى وصول الرسالة سؤالكم إلى الأخ الأستاذ أفلح ، وسلمت إليه بعض المراجع التي لدى موثوق بها ليجول فيها جولات الفارس المغوار فكان - حفظه الله - جوابه وافياً بالغرض كما تراه داخل هذا ، وقد سل الإمام أبا بكر كما أروم من الشبهة التي ألصقها به دعاء الفتنة من ذوى الأحقاد ضد الإباضية ، فتأملوا جرابه بإمعان تجدوه مسراً مبهجاً في آن واحد . ولك الفضل أنت إذ حركتنا بأبحاثك القيمة فزدنا من هذا أمدك الله بعونه وتوفيقه » .

(١) أفلح هو الاسم الذي اختاره أستاذنا الفاضل العلامة الشيخ بيوض إبراهيم حفظه الله لنفسه فكان يوقع به المقالات التي ينشرها في المجلات والجرائد . وقد أحب جميع طلابه هذا الاسم . فكنا في جميع الأحوال لاتناديه إلا به ولا نستعمل في رسائلنا ومكاتباتنا فيما بيننا وبينه غير هذا الاسم .

ولكن مع هذه الرسالة رسالة أستاذنا الفاضل الشيخ بيوض حفظه الله ومعها النص الذى نقله عن طبقات الدرجينى . وإلى القارىء الكريم نص الرسالة بعد الديباجة :

« أحال على الشيخ أبو اليقظان حفظه الله جواب كتابك فى قضية الإمام أبى بكر وصهره ابن عرفة ، لاشتغال الشيخ - أمد الله فى عمره - بإتمام بعض تأليفه التى لا تقبل التأخير . وليس لدينا مصدر لرواية الاغتتيال إلا الأزهار الرياضية وطبقات الدرجينى ، وبينهما خلاف كبير من أهمه أن الاغتتيال - عند الدرجينى - كان قبل قدوم أبى اليقظان من المشرق ، وأنه نسب إلى أبى بكر لمنع الاتفاق ، وأن الخلاف بين أبى بكر وابن عرفة قد اشتد إلى حد القطيعة بل إلى الحرب قبل الاغتتيال ، وأنه أصبح قتيلا والناس يجتمعون ، والناس ينظرون فى هذه الفتنة وإطفاؤها وأن أبا اليقظان قدم فى هذه الأثناء ، وأن الخلاف ارتفع بقدومه فاعتزل أبو بكر وتولى الإمامة محمد ، ودان له الناس بالسمع والطاعة . فالدرجينى رحمه الله لا يثبت نسبة الاغتتيال إلى أبى بكر ، ونحن معه ومعك فى الشك فى ذلك ، واشتداد النزاع والشقاق واستعلانه بين الرجلين إلى الحد الذى ذكره الدرجينى يقضى على صورة المؤامرة ويحتثها من أصلها على أن كل جزء من أجزاء الصورة يعلن صارخاً بالتلفيق المغفل والصنعة البليدة - وهل يبلغ السخف والسفه والبلادة بأبى بكر إلى حد حبك المؤامرة على تلك الصورة الصبغانية المفضوحة هذا ما لا نظنه ولا نتصوره بقطع النظر عما وصف به الرجل من متانة دين - وسماحة خلق ، وإن أباح له دينه دمه ، فإن بيده الأمر ، ولن يعجزه تنفيذه بصورة أشرف وأحزم . والله أعلم .

وقد يكون عندك من المصادر أكثر مما عندنا ، ومع هذا فقد بعثنا

إليك نص كلام الطبقات احتياطاً وأنت بعد أدري بالصيغة التي تروى بها الحادث بعد التروى وإنا نعلم النظر ثم بما تعقبه وتعلق عليه ، أخذ الله بيدك ، وسدد خطاك ، وأعانك على إتمام ما أنت بصدده من عمل جليل ، ترجو الأمة عاجل نفعه وترجو أنت آجاله .

ولتكتمل الصورة التي أردت أن أضعها أمام القارئ الكريم من هذه المراسلات أضع بين يديه نص الطبقات الذي أرسله أستاذنا الفاضل حفظه الله مع رسالته ، وإليك النص :

« وصل أبو اليقظان إلى تاهرت فوجد أهلها مجتمعين في أمر أبي بكر لما بينه وبين ابن عرفة ، وذلك أن ابن عرفة رجل من أعيان أهل تاهرت فكانت بينه وبين أبي بكر موقعة أفضت إلى حرب . وكاد الافتراق يقع ، والفتن لا ترتفع بينهما ، فبينما الناس في ذلك أصبح ابن عرفة قتيلاً فنسب إلى أبي بكر في هذا ما منع من وقوع الاتفاق على طاعته فلما يسر الله بقدم محمد كان رفعاً للخلاف . وقطعاً لقبائح الأوصاف ، فاعتزل أبو بكر الولاية وانسلخ منها ، ولم يجد الناس لمحمد محيداً عنها ، ففقدوا له البيعة ، والتزموا سمعه وطاعته . »

ويعلق الأستاذ الفاضل على هذا فيقول : « هذا هو النص الحرفي في النسخة التي بين أيدينا . »

أبو بكر بن أفلح وروايات ابن الصغير

لا شك أن المؤرخين الكبارين : الباشا الباروني ، ومحمد علي دبور قد اعتمدا على ابن الصغير اعتماداً كلياً فيما كتبه كلاهما عن أبي بكر وأنهما قد أخذوا ما وجداه عنده قضية دسامة لا يقرب إليها الشك ولا تستدعي أي نقاش . وهما معزوران في ذلك فإن رسالة ابن الصغير تعتبر من أوثق المصادر عن تاريخ الدولة العثمانية ولكن مع ذلك أستطيع أن ألاحظ ما يلي :

نحن نفترض الصدق والنزاهة في ابن الصغير ولا نتهمه بالكذب والتأليف بدليل قوله في رسالته عن تاريخ الدولة العثمانية : « وأن أتم الصدق فيها ، ولا أحرفها على معانيها ، ولا أزيد فيها ولا أنقص منها ، إذ النقص في الخبر والزيادة فيه ليس من شيم ذوى المروءات ، ولا من أخلاق ذوى الديانات ، وإن كنا للقوم مبغضين ولسيرهم كارهين ، ولما ذاهبهم مستقلين ، فنحن وإن ذكرنا سيرهم على ما اتصل بنا وعدلهم فيما ولوه فلسنا ممن تعجبهم طلاوة أفعالهم ولا حسن سيرهم » .

ولاشك أنه يتضح للقارئ الكريم في هذا أن ابن الصغير كان مبغضاً للأئمة الدولة العثمانية ولبغضه لهم كان لا يعجبه العدل وحسن السيرة منهم ولكنه يقرر أنه رغم ذلك فهو ينقل سيرهم الحسنة وأخبارهم الدالة على الاستقامة والعدل كما تبلغ إليه ولا يغيرها لأن تغيير الأخبار ليس من شيم ذوى المروءات ، وواضح من هذا أن الأخبار والأحداث التي وقعت في عهد أبي بكر لم يحضرها ولم يشهدها وإنما بلغت عن طرق أخرى غير المعرفة الشخصية اليقينية الجازمة .

إن الأخبار وصلت إليه عن غير واحد فنقل ما وصل إليه وسجله في رسالته التي تعتبر اليوم من أهم الوثائق في تاريخ الدولة الرسمية فإذا أردنا أن نتأمل فيما جاء في هذه الرسالة عن الأحداث والوقائع والأخلاق في عهد أبي بكر فإننا نجد كثيراً من التناقض الذي يهدم بعضه بعضاً ، وأن الرؤوس التي دبرت المؤامرة واتهمت بها أبا بكر وألصقتها به لا تزال إلى عهد ابن الصغير توالى جهودها في نفس الاتجاه . وأن الأخبار التي بلغت إلى ابن الصغير إنما بلغت من هذا الجانب الذي كان يعمل على تحطيم أبي بكر والدولة الرسمية من ورائه .

وإنه لا يزال مستمراً في جهوده لتحقيق مراميه ولعله مما يساعد القارئ الكريم على دراسة هذه القضية وتفهم حقائق أحداثها أن نستعرض معاً الصور التي رسمها ابن الصغير لأبطال تلك الأحداث ثم ما نسب إلى كل منهم من أعمال ، وهل تناسب تلك الأعمال مع تلك الصور ؟ وإلى القارئ الكريم هذه الصور :

١ — أبو بكر بن أفلح بن عبد الوهاب يقول عنه ابن الصغير : « فلما ولي أبو بكر لم تسكن فيه من الشدة في دينه ما كان فيمن قبله من آبائه ولكن كان سمحاً جواداً لئن العريكة ، يسامح أهل المروءات ويشايهم على مروءاتهم ، ويحب الأدب والأشعار وأخبار الماضين » .

فأنت ترى أن الإطار العام لهذه الصورة يبرز أبا بكر في صورة عالم وأديب ومؤرخ لئن الجانب متسامح ، جواد ، محب للمروءة مساعد عليها . فهل يمكن أن تصدق أيها القارئ الكريم أن رجلاً هذه أخلاقه يمكن أن ينقلب بوشاية في جلسة واحدة إلى مقامر يقتال الأنفس البريئة .

هل تستطيع أن تصدق أن هذا الرجل الوديع الهادئ الودود يمكن أن ينقلب إلى وحش يبلغ في الدم ، بل إلى رجل توضع بين يديه مؤامرة لاغتيال صهره وأعز صديق لديه - حسب رواية ابن الصغير - بجميع تفاصيلها وتحديد مكانها وزمانها - وطريقة تنفيذها فيقوم بدوره فيها وينفذه بدقة وإحكام حسبما خطط واضعو المؤامرة له .

إن الفسکر السليم والمنطق الصائب لا يمكن أن يصدق هذا .
ولو كان أبو بكر من عتاة المجرمين اليوم ومن تعود أن يقوم بأدوار الإجرام لاحتاج إلى مزيد من الوقت ومزيد من التفكير فكيف بذلك الرجل الحي الودود ؟ ! .

٢ - محمد بن عرفة يقول عنه ابن الصغير : « كان وسيماً جميلاً جواداً سمحاً وكان قد وفد على ملك السودان بهدية من قبل أفلح بن عبد الوهاب فأعجب ملك السودان مارآه من هيئته وجماله وفروسيته إذا ركب الخيل ، فبرز يديه وقال : أنت حسن الوجه ، حسن الهيئة والأفعال ، وكان محمد ابن عرفة إذا ركب من داره يريد أباً بكر مشى بين يديه ومن خلفه ومن يمينه ومن يساره أمم من الأمم » .

« وفي كل ذلك محمد بن عرفة في دوى وصيت عال » .

الإطار العام للصورة التي وضعها ابن الصغير لمحمد بن عرفة تبرزه في صورة رجل غنى كريم جميل محبوب محب لمظاهر العظمة يسعى للظهور .

ولا شك أن هذه الصفات تجمع حوله الناس ، وتبعه من يحدث نفسه بالوصول إلى أكبر المراكز في الدولة فإذا عاقه عائق اتخذ للوصول جميع

الوسائل حتى وسائل العنف وسلك كل السبل التي تناسب مع خلقه ومركزه في نفسه وأمثال هذا الرجل غالباً يسلكون مسالك العنف ولا ينحدرون إلى تدبير المؤامرات والمكائد .

٣ — البطل الثالث من أبطال هذه الرواية هو أبو اليقظان وقد قال عنه ابن الصغير ما يلي :

« وقد لحقت أنا بعض أيامه وأمارته ، وحضرت مجلسه وقد جلس للناس خارج المسجد الجامع مما يلي الجدار الغربي » . « ورأيت يوماً ثانياً في مصلى الجنائز ، وقد رميت له وسادة من أدم فجلس عليها ينتظر فراغ دفن رجل مات من وجوه الناس ، وكان مربع القامة أبيض الرأس والحية وكان إذا جلس الناس وأمرهم بالجلوس لم ينطق أحد بين يديه إلا أن تكون ظلامه ترفع إليه ، وكان زاهداً ورعاً ناسكاً ، سكيّتما » .

فأنت ترى أن الإطار العام لهذه الصورة يبرز أبا اليقظان في صورة رجل زاهد ورع ناسك وقور ملتزم للصمت مهيب ، هل يمكن أن يصدق إنسان أن رجلاً في هذه الصورة ينحدر إلى صفة واشٍ متآمر يضع خطة للاغتيال بأدق تفاصيلها ثم يدفع أخاه إلى تنفيذها ويفريه بالقيام بأدوارها الخزية وفي نفس الوقت تكون موجهة إلى صهر هذا الأخ وخال أطفاله .

بعد هذه الصور التي وضعها مختصرة بين يديك للأبطال الثلاثة الذين أسندت إليهم فصول هذه المؤامرة باعتبار أبي اليقظان مخططاً وأبي بكر منفذاً وابن عرفة ضحية يهمني أن ألمحظ معي موقف ابن الصغير راوي القصة فإن في أسلوبه في رواية هذه القصة ما يدعو إلى التأمل .

يبدو لي أن ابن الصغير وهو يستمع إلى رواية أحداث المؤامرة كانت

تعتلج في نفسه كثير من الشكوك وعدم التصديق ، وكان كأنه يخشى أن القارىء يتهمه بعدم التحرى في نقل هذه الأخبار ، ولذلك فقد بدا شديد الاحتراس ، كثير الاحتياط بكرر بمختلف الأساليب أنه إنما ينقل ما بلغه ، وأنه ربما كان يشك في صحة ما بلغه ولكنه مع ذلك لا يملك إلا أن ينقله مع الاحتراس ، والعهد على الراوى كما يقولون ، ومن المهم أن نتأمل احتراساته ، فانظر إليه كيف يصوغها :

« أخبرنى جماعة » ، « أخبرنى غير واحد » ، « قالوا » ، « قالوا وكان محمد بن عرفة هذا قد تزوج بأخت أبى بكر » ، « قالوا فكانت الإمارة بالاسم لأبى بكر وبالحقيقة لمحمد بن عرفة » ، « قالوا المنفرد بهذا الكلام أبو اليقظان خاصة دون سائر إخوته وأعمامه » ، « فإله أعلم أى ذلك كان » .

هذه أمثلة من احتراسات واحتراقات ابن الصغير ويبدو منها أن الرجل كان يحس بمسؤولية تلقى على كاهله فهو يعمل جاهداً لكي يتنصل منها ، ولو لم يكن يشك فيها لما حاول التنصل منها بهذا الإلحاح .

أما الأسباب التى دعت ابن الصغير إلى نقل هذه الأخبار مع الشك في صحتها فلربما عدم وصوله إلى الحقيقة في ذلك الحين ، ثم إن الحزب الذى دبر المؤامرة ونفذها لا يزال يعمل إلى ذلك الحين وهو يسعى إلى إثبات الجريمة كما خططتها المؤامرة ولعل الرواة الذين نقلوا أخبار المؤامرة إلى ابن الصغير كانوا من هذا الحزب ولعله كان يعرف ذلك أيضاً ولذلك فهو يشك فيهم ولكنه لم يجد مفرأ من النقل عنهم .

وبالجملة فإن القارىء إذا كان يقرأ ما كتبه ابن الصغير عن هذه الأحداث يتبين له بوضوح أن ابن الصغير نفسه كان يروى تلك الأحداث

وهو يشك في صحتها وصدق روايتها فكان يخشى أن يتهم بالكذب أو التلغيق فحرص أن يخبر أنه إنما بلغه ما يرويه عن جماعة أو قالوه له ، ولعل القارئ الكريم يلاحظ في هذا الفصل أن نوعاً من الارتباك أصاب ابن الصغير وهو يتحدث عن هذه الفترة من تاريخ الدولة الرستمية فهو لم ينقلها لنا بلسانه ويسرد علينا أحداثها سرداً عادياً وإنما كان يشير إلى أن مبلغيه بلغوها إليه وهو رغم ذلك قد فاتته شيء مهم لأنه لم يذكر أسماء المبلغين على الطريقة الروائية المعروفة التي تنق فيهما العهدة على الراوى الأول للحدث وهكذا رغم احتراسه الشديد فإن مهمة خفيفة تتجه إليه بأنه قصر في التحرى والتحقيق والنقل من الأحزاب المعارضة وهي كثيرة - في تلك الفترة . أو أنه عمد إلى إغفال ذكر أسماء من نقل عنهم لأنهم ليسوا في المرتبة التي تسلم من النقد .

التناقض في أخبار ابن الصغير

يذكر ابن الصغير أن محمداً بن عرفة تزوج أخت أبي بكر ، وأن أبا بكر تزوج أخت ابن عرفة ويقول إن ابن عرفة كان لا يُحجب عن أبي بكر سواء كان في مجلسه أو كان في حرمه . وهذا شيء طبيعي إذ كانت زوجة أبي بكر هي أخت ابن عرفة فلا داعي لحجبه عن بيت أبي بكر أو بعبارة أوضح عن الدخول على أخته وزيارتها متى يشاء . كما أنه لا يحق لغيره ممن ليس له حرمة القرابة أن يدخل إلى بيت أبي بكر بدون استئذان فإن له حرمة مصونة كما لجميع بيوت المسلمين .

وببدو أنه يحسن بنا أن ننقل نصوص ابن الصغير لتعاملها ونعرف ما تشتمل عليه .

١ - قال ابن الصغير : « وكان محمد بن عرفة إذا أتى باب أبي بكر لم يُحجب كان أبو بكر في مجلسه أو في حرمته ، وكان أبو اليعتقان وجميع إخوان أبي بكر وأعمامه لا يدخلون على أبي بكر إلا باستئذان إذا كان في مجلسه وإلا انصرفوا » .

وقبل هذا الكلام مباشرة يقول ابن الصغير وهو يتحدث عن أبي اليعتقان :

« فإذا كان آخر النهار أتى باب أخيه أبي بكر فإن وجده جالساً دخل عليه وأعلمه بما حدث في يومه من خبر وحكم ، وإن لقيه مشغولاً قال لمن (٢ - الإباذية)

علم أنه يصل إلى حرمة اقرأ على الأمير السلام وقل له أصبحت مدينتك اليوم
حادثة وأمست هادئة .

تأمل أيها القارئ الكريم هذه العبارة تجدها مناقضة كل التناقض
للعبارة الأولى فهو يقول في الأولى إن ابن عرفة لا يُحجب عن أبي بكر سواء
كان في مجلسه أو في حرمة وأن بقية الناس ومنهم أبو اليقظان كانوا
يُحجبون عنه ولا يصلون إليه سواء كان في مجلسه أو في حرمة إلا بإذن، وفي
العبارة الثانية يقول إن أبا اليقظان يمر يومياً على أبي بكر فإن وجده في مجلسه
دخل وأخبره بأحداث اليوم وإن وجده عند حرمة أوصى من يجوز له الدخول
فيبلغه الأخبار وهذا هو الموقف الطبيعي لأن زوجة أبي بكر لم تكن محرماً
لأبي اليقظان فيدخل متى يشاء كما يدخل ابن عرفة . والمقارنة بين القصتين
مع دراسة طبيعة الأحداث والسلوك في ذلك العصر المحترق للمنزعة تكشف
عن هذه التلقية الأخيرة التي دبرت لتحريك بها فصول المؤامرة فزعمت أن
أبا اليقظان كان يحجب عن مجلس أبي بكر ، ومن يكن في مجلسه إذا لم
يكن فيه أبو اليقظان ؟ ! .

ولست أدري والله كيف فانت هذه الملاحظة ابن الصغير فأثبت الخبر
دون ترو أو نقاش ، كما لست أدري كيف لم يلتفت إليها كل من المؤرخين
الكبار ابن الباروني والذبوز وقد اعتمدا فيما يواو على رسالة ابن الصغير
إعتماداً كلياً .

هذه صورة من التناقض الذي ورد في رسالة ابن الصغير عن أحداث
المؤامرة التي نسبت إلى أبي بكر .

وإليك صورة أخرى يبدو لي أنها أوضح وأحق أن تستجلب اهتمام
القارئ ثم المدارس والمباحث ، يقول ابن الصغير :

٢ — « قالوا : فسكانت الإمارة بالاسم لأبي بكر والحقيقة لمحمد ابن عرفة » .

ويقول : « إلى أن قدم أبو اليقظان من العراق فوجد أخاه أبا بكر أميراً ، والعجم على أحوالهم ، والنفوسة على مراتبهم ، وسائر الناس على ما هم عليه فلم يغير شيئاً ولم ينكره ، ولا ادعى إمارة ولا نازع فيها أخاه . بل يظهر له القيام له ، والحسبة بين يديه ، — وكان أبو بكر يحب اللذات ، ويميل إلى الشهوات — فصرف النظر في المدينة وأحوازها إلى أخيه أبي اليقظان مع ما ظهر له من الكفاية مع أدب المشرق ، والأخذ بالحزم فيآرآه من ولاية بني العباس وسيرهم . وكان أبو اليقظان يركب إلى أعلى مسجد في المدينة فيجلس فيه فمن تسكلم إليه من الناس بين العمال والقضاة وأصحاب الشرطة نظر في ذلك نظراً شافياً ، وأجرى الحق على من رضى وسخط ، عظم قدره أو صغر ، ولم تأخذه في الله لومة لائم ، فحمد له الشراة ذلك ، وحمد له أخوه فعله ، فإذا كان آخر النهار أتى باب أخيه أبي بكر فإن وجده جالساً دخل عليه وأعلمه بما حدث في يومه من خبر أو حكم ، وإن لقيه مشغولاً قال لمن علم أنه يصل إلى حرمة أقرأ على الأمير السلام وقل له أصبحت مدينتك اليوم هادئة وأمست هادئة ، وإذا كان في الليل ركب وطاف في المدينة حتى أقصاها ويحكم في الأمر الضروري ، ويأمرهم إذا حدث حادث أن يوافوا داره ، فإذا أحكم جميع ذلك انصرف إلى داره فإذا كان بالغداة غداً إلى باب أخيه فإن وجده جالساً أعلمه بما كان في المدينة من حدث إن كان حدث ، أو هدوء ، إن كان هدوء ، فلم يزل كذلك حتى جلب قلوب الناس والشراة إليه ومالت نحوه » .

إذا صرفنا النظر عن موقف أبي بكر في الحكم فأى الرجلين كان هو الأمر على الحقيقة ، محمد بن عرفة أم أبو اليقظان محمد بن أفلح ؟ .

ذكر ابن الصغير أن الإمارة كانت بالحقيقة لابن عرفة هكذا على الإجمال . ولكنه وهو يتحدث عن أبي اليقظان قد فصل سيرته اليومية ، ومباشرته لأعمال الإمارة ومهره عليها ليلاً ونهاراً ، وتولية مشا كل الناس واتخاذ الحلول لها حتى أحبه جميع الناس ثم إنه كان يعرض نتيجة عمله على الإمام أبي بكر مرتين في اليوم فإذا وجده في مجلسه عرض عليه ذلك مباشرة ، وإن وجده في حرمة كلف من يبلغ إليه ذلك عند حرمة من يجوز له الدخول عليه مباشرة فما هي السلطة التي كانت بيد ابن عرفة ؟ ألا ترى أيها القارئ الكريم في هذا تناقضاً واضحاً !! .

إن كل ما أستطيع أن أفهمه في هذه الروايات وأن أصدقه لقربه من الواقع أن أتصور أن محمداً بن عرفة صهر أبي بكر هو رجل له مركزه في الأوساط الشعبية كما يقال اليوم فهو عندما يريد أن يزور الإمام يلتف حوله مجموعة من طلاب الحاجات والطامعين تسير حوله فإذا بلغ إلى باب أبي بكر دخل سواء كان الأمير في مجلسه الذي يستطيع أن يدخله كل أحد أو كان في حرمة الذي لا يستطيع أن يدخل إليه إلا من كانت له العلاقة الشرعية للبيعة . ويرى أولئك الأتباع أن ابن عرفة يدخل إلى منزل أبي بكر كما يدخل إلى مجلسه دون استئذان فيظنون أن ذلك لارتفاع مقامه وتصرفه في أمور الدولة ، يضاف إلى ذلك أنه ربما يقضى بعض المآرب لبعض الناس فيطلقون له ألسنة الدعاية .

بعد هذا أود أن يتأمل القارئ الكريم معنى ما يأتي :

إن أحداث المؤامرة في اغتيال ابن عرفة صورت على أساس أن ابن عرفة كان يتنعم بكل شيء في إمارة أبي بكر ، وأنه كان الإمام الفعلي

ولذلك فقد غار منه وحسده أقارب الإمام وإخوته ولا سيما أبو اليعقظان وأنه من أجل ذلك حبك أبو اليعقظان تلك المؤامرة ونسج خيوطها ، ودفع أخاه أبا بكر إلى ارتكابها ولكنك بقراءتك لما نقلناه لك عن ابن الصغير تجد أن الحاكم الفعلي في ذلك الحين إنما هو أبو اليعقظان فهو الذي ترك له التصرف المطلق وأنه كان يتولى ذلك بكفاءة ونزاهة وحزم .

فعلى أى شيء يغار أبو اليعقظان من ابن عرفة ؟ وعلى ماذا يحسده ؟ والأمور كما ذكر ابن الصغير كلها بيده ، وأخوه عنه راض والشرارة عنه راضون والشعب له محب . إن ابن الصغير وهو يتحدث عن ابن عرفة رسم له ثلاث صور :

الأولى - صورة شخصية : مال وجمال وجود وفروسية .

الثانية - خلقية : تعاظم ، ومحبة للظهور والمظاهر ، واصطناع للجواش والأتباع .

الثالثة - عملية : وقد كانت باهتة جداً لا تتضح فيها خطوط ولا ملامح لأن ابن الصغير اكتفى فيها بجملته واحدة هي قوله : « كان الأمير بالحقيقة » .

وكما رسم لابن عرفة ثلاث صور فقد رسم لأبي اليعقظان وهو يتحدث عنه ثلاث صور أيضاً :

الأولى - صورة شخصية : دين وورع ونسك وعلم ووقار .

الثانية - خلقية : جد في معالجة المشاكل وتصريف الأمور ، وحزم في إجراء الأحكام مع عدالة ونزاهة ، وكفاية ومقدرة ، وخبرة وأدب مكتسبان من أنظمة الحكم في الدولة العباسية ، واقتباس للأساليب الصالحة في تسيير دفة الحكم وتنظيم الرعايا .

الثالثة - عماية : وهى صورة واضحة لمخطط عمله اليومى ، وسلوكه فى تصرف جميع شئون الدولة بما لا يبقى لغيره شيئاً منها ، وإحكام ذلك وتنفيذه بالسرعة التى لا يعقبها ولا تغفلها شكوى .

ومقارنة هذه الصورة بالصورة الثالثة التى وضعت لابن عرفة ، تجعل ما قيل عن ابن عرفة فى هذا المجال لا يمكن بحال من الأحوال أن يستقيم أو يثبت اللهم إلا إذا كان دخول ابن عرفة على صهره دون حجاب ، أو انبعاث بعض الطامعين أو المتزلفين له طمعاً فى المال أو فى الجاه يعتبر هو حقيقة الإمارة . وهذا أبعد شئ عن منطق الواقع .

وإنه لا يمكن لأى عقل يحترم نفسه أن يصدق أن أبا اليقظان بدينه وأخلاقه وسلوكه وما أسند إليه من مهام الدولة وتصريف لشأنها - يمكن أن ينحدر إلى الوشاية وتدبير المؤامرات ، وأنه ليس له أى دافع أو مصلحة فى ذلك ، وابن الصغير نفسه عندما قال : « قالوا : المنفرد بهذا الكلام أبو اليقظان خاصة دون سائر إخوته وأعمامه » ، لم يصدق ذلك وهو الرجل الذى عرف أبا اليقظان عن كثب ، وحضر مجلسه ، ولذلك عقب على تلك الجملة بقوله : « فأن الله أعلم أى ذلك كان » ، بعد ما تنصل من تبعة الرواية - حسب طريقته المعهودة - بقوله فى أول الجملة : « قالوا » .

٣ - يقول ابن الصغير : « وكان محمد بن عرفة إذ أتى باب أبى بكر لم يحجب كان أبو بكر فى مجلسه أو فى حرمة ، وكان أبو اليقظان وجميع إخوان أبى بكر وأعمامه لا يدخلون على أبى بكر إلا باستئذان » ، ويقول : « جمعهم يوماً إلى نفسه لأمر أراد شورا هم فيه فلما ظفروا بالخلوة قالوا... » .
ويقص بعد ذلك وشايتهم بابن عرفة وحبكهم للمؤامرة .

والذى بلغت النظر فى هذه القضية أن أبا بكر جمع خاصته ليستشيرهم فى أمر هام ولم يحضر معهم محمد بن عرفة . فإذا كانت منزلة ابن عرفة فى الدولة كما يصورها ابن الصغير فكيف يتقدم مجلس شورى فى أمر هام من أمور الدولة ولا يحضره ابن عرفة ، وكيف يدعو أبو بكر ناساً لاستشارتهم ولا يكون ابن عرفة فى مقدمتهم ، ثم إن ابن عرفة لا يستأذن ولا يُحجب عن مجالس الإمام فكيف غاب عن هذه المجالس وقد تعددت - كما يقول ابن الصغير ؟ - . لاشك أن فى هذا تناقضاً واضحاً .

٤ - يقول ابن الصغير : « قالوا : المنفرد بهذا الكلام - أى الوشاية وتفصيل المؤامرة - أبو اليقظان حاصلة دون سائر إخوته وأمهاته » . ويقول فى موضع آخر من كتابه ما يلى :

« واعتزل أبو اليقظان الفريقين وصار إلى عدوة نفوسة » .

ألا تحس معنى أيها القارئ الكريم بشيء من الغرابية والتناقض فى هذا الكلام فهذا أبو اليقظان كما يقول ابن الصغير يظفر بخلوة مع الإمام فينتهز هذه الفرصة ويشئ له بصهره ابن عرفة ثم يخطط له جريمة اغتيال ويدعوه إلى ارتكابها فيستجيب الإمام إلى كل ذلك كأنما هو منوم تنويمًا مغناطيسيًا وعندما تنكشف المؤامرة ويثور الناس على أبي بكر يقف أبو اليقظان متفرجاً من بعيد قد اعتزل الفريقين وجد فى عدوة نفوسة . كيف لا ينصر أخاه فى أخرج اللحظات وهو الذى دفعه إلى هذا الموقف لاسيما وأن أبا بكر ثبت ولم يستقط ؟ ، أما كان من واجب أبي اليقظان وهو يعرف كل أسرار القضية باعتباره مخططاً لها أن يقف إلى جانب أبي بكر بكل ما لديه من قوة على الأقل ليحقق رغبته فى القضاء على ابن عرفة وأنصاره ؟

بل أليس من واجبه أن يكون قد أعد العدة لاستقبال هذا الموقف وغيره .

٥ - يقول ابن الصغير عن أخلاق أبي بكر : « كان سمحاً جواداً لين العريكة » .

ويقول : « وكان أبو اليقظان وجميع إخوان أبي بكر وأعمامه لا يدخلون على أبي بكر إلا باستئذان » .

ألا ترى معي أيها القارئ الكريم أن هذا غير مقبول أن الرجل السمح الجواد اللين العريكة ، يكون كذلك مع أهله وأقاربه أكثر مما يكون مع الناس ، وهذا النوع من الرجال غالباً ما يكون ضعيفاً أمام الشخصيات القوية من ذوى القرابة ، فكيف أمكن لأبي بكر وهو السمح الجواد اللين أن ينقلب إلى غليظ شديد نفور ، يحجب عنه أقاربه ويردهم عن مجلسه ولا يوقر حتى لإخوته الأكبر منه وأعمامه فيجلبسهم على بابه في انتظار الإذن !! إنها لو كانت حاله مع فرد منهم لأمكن ذلك ، أما أن تكون حاله مع جميعهم كذلك ، وهو بالأوصاف السابقة ، لما يدعو إلى الشك والارتياب فيما قيل !! .

أحسب أن هذا يكفي لإيضاح أن مؤامرة اغتيال ابن عرفة يستحيل أن تكون صادرة من بيت الإمارة ، من أبي بكر أو من أبي اليقظان ، أو من يفكر بتفكيرها وبسلك سلوكهما ، وإنما دبرتها أفكار تريد أن تضرب أبا بكر وأبا اليقظان معاً وربما ابن عرفة أيضاً ، والأطماع إذا انفتحت أبوابها فإنها لا تنغلق - ولم تجد خيراً من أن تشعل الخلاف القائم فتحدث فتنة بقتل ابن عرفة وإلقاء التهمة على أبي بكر لتستريح من الاثنين .

هل كان أبو بكر ضعيفاً

أود أن يعرف القارئ الكريم أنني في هذا الفصل أحب أن أناقش صفة أطلقها بعض المؤرخين على أبي بكر فقالوا إنه كان ضعيفاً ووصفه بعضهم بأنه الحلقة الرخوة في سلسلة الأئمة الرستميين الذهبية وأننى في مناقشتى هذه سوف أعمد على ما ورد في رسالة ابن الصغير فقط وهى أقرب المصادر من عصره .

ذكر ابن الصغير استناداً على ما بلغه أن أبا بكر لم تكن له من الشدة ما كانت في أسلافه ، وأنه كان لين العريكة ، سهل الخلق ، يحب الأدب والشعر والتاريخ وأنه كان يميل إلى طيبات الحياة ، ولأجل هذه الصفات والأخلاق اعتبره ضعيفاً .

وجاء الأستاذ محمد على دبور فانساق في هذا التيار وصب جام غضبه على أم أبي بكر التى كان يتخيلها ولا يعرف عنها شيئاً . فهل كان أبو بكر ضعيفاً حقاً ؟

إن الأحداث التاريخية القليلة التى وقعت في عهده والتى ذكر المؤرخون أكثرها بعد أن حرقها الأهواء ، وشوهتها الدعاية ، وأذاعها في الغالب الجانب المعادى لأبي بكر وللدولة الرستمية - لا تدل على ضعف أبي بكر وإنما تدل على قوته ، وسعة مداركه ، وتقهمه لجرى السياسة في عصره ، وقوة إرادته وحزمه وصبره .

ولكى يتضح لنا هذا يجب أن نستعرض بعض الحقائق الثابتة في تاريخ تلك الفترة ثم نتأمل دلائلها وما تؤدي إليه .

١ — الحقيقة الأولى : عندما أعلنت البيعة لأبي بكر وسارع إليها الناس ارتفع صوت عبد العزيز بن الأوز بالمعارضة وكان يصيح في الشوارع معلناً معارضته وينتقد الدعاة إلى بيعة أبي بكر في صراحة ووضوح ولكن البيعة تمت بالأغلبية التي تعتبر المعارضة في جانبها كأنها غير موجودة . فما هو موقف أبي بكر من هذا الرجل الذي يصيح في الشوارع معارضاً لبيعته ؟ لو كان أبو بكر ضعيفاً كما يظن بعض المؤرخين لسلك في هذا الحادث مسلك الحكام الضعفاء . لسارع إلى الانتقام من الرجل ليجعل منه عبرة لغيره ، لأن الضعيف يخشى على منصبه أن ينال منه النقد أو تؤثر عليه المعارضة ، ولأن هذا المسلك هو الذي سار عليه الحكام الضعفاء ، لا يثبتون مراكزهم إلا بإسكات أصوات المعارضة وخنق حريات الشعوب والأفراد ، أما الحاكم القوي الوائق من نفسه ومن محبة الشعب له فهو لا ينظر إلى أصوات المعارضة إلا نظرتة إلى شيء طبيعي يقع خلال حكمه سيستفيد من حقه ويهمل باطله ولا يهتم به إلا إذا تجاوز المعارضة القولية على مستوى النقد إلى المعارضة الفعلية على مستوى إشعال نار الفتنة أو تفريق صفوف الأمة ، أو ارتكاب أساليب الجريمة ، وحينئذ يتخذ القوى موقف القوة فيضرب الضربة التي تحسم الشر وتطفىء النار المشتعلة وتلم شتات الصفوف المتفرقة أو تحول دون ارتكاب الجرائم المتوقعة وهي في كل ذلك لا تتجاوز الحق والعدل

إن سكوت أبي بكر على عبد العزيز بن الأوز الذي يصيح في الشوارع بالمعارضة حتى بعد تمام البيعة دليل من أدلة قوة أبي بكر .

٢ — الحقيقة الثانية : يقول ابن الصغير : « إن الكلمة مجتمعة والدعوة واحدة ، والناس مقيمون على أحوالهم . إلا أن الضغائن بين القبائل وأهل

الخواص في الصدور على ما كانت في أيام أبيه ، وبين القبائل حروب تهيج
ثم تسكن والبلد زائدة في العماره .

ويقول : « إلى أن قدم أبو اليقظان من العراق فوجد أخاه أميراً والعجم
على أحوالهم والنفوسة على مراتبهم ، وسائر الناس على ما هم عليه ، فلم يغير
شيئاً ، ولم ينكر شيئاً ، ولا ادعى إمارة ولا نازع فيها أخاه . »

هذه صورة حالة البلاد في الفترة التي تولى فيها أبو بكر الحكم ما بين
بيعته بالإمامة ومجيء أخيه أبي اليقظان من العراق حسب رواية
ابن الصغير طبعاً .

وقد ذكر ابن الصغير أن هذه الحالة هي نفس الحالة التي كانت عليها
الدولة في عهد أبيه ، والمؤرخون مجمعون — فيما أحسب — أن أفلح يعتبر
أقوى شخصية في الدولة الرسمية . ومحافظه أبي بكر على المستوى الذي
كانت عليه الدولة في حكم أقوى أئمتها واستمرار تلك الحالة طيلة فترة حكمه
دليل على أن أبا بكر يتمتع بالقوة التي يتمتع بها أفلح فإن لم يكن مثله فهو
سائر في ركابه ومتأثر بخطواته .

ثم إن هذه الصورة التي ذكرها ابن الصغير للدولة الرسمية في عهد
أبي بكر تدل أن أبا بكر سار بالدولة في منهجها القويم الذي كانت تسير
عليه من قبل كما تدل هذه الصورة أن محمداً بن عرفة كان موجوداً ولكن
أبا بكر لم يسند إليه شيئاً من أعمال الدولة ولم يعتمد عليه في تصريف أمورها
وإنما كان يقوم بها بنفسه حتى جاء أبو اليقظان فأسندت إليه كثير من
المهام فقام بها بكفاءة وجدارة وبقطة تستحق الإعجاب . ولا شك أن هذه

الصورة تنسف خرافة أن ابن عرفة كان هو الأمير الفعلي والأمير بالحقيقة من أساسها ولا تبقى لها ظلالاً أو نسبة ظل .

لو كان أبو بكر ضعيفاً لتفرقت السكلمة وتغيرت أحوال الناس وتضاربت التباثل وخرجت الضغائن من الصدور وتوقفت العمارة في البلد ، واستولى عشاق الحكم على مناصب الدولة وتصرفوا فيها على حسب أهوائهم . ولكن القضية كانت بخلاف ذلك ؛ كان أبو بكر يمسك الأمور بحزم ودراية فلم يستطع أحد أن يلعب بأمور الدولة فلما وصل أبو اليقظان اختبره أبو بكر ووثق به فاستعان به على تصريف الشئون وأسند إليه كثيراً من المهام . وهذا التصرف نفسه دليل على القوة والثقة بالنفس وقد جرى تاريخ السياسة والحكم من هذا كثير ، ولا نذهب بالقارىء بعيداً فلقد ترك عبد الوهاب الأمور لأفلح زمناً غير قصير ولا يستطيع أحد أن يزعم أن عبد الوهاب كان ضعيفاً ، على أن أبا بكر كانت تعرض عليه نتائج أعمال أبي اليقظان مرتين في اليوم وهذا منتهى الحزم والقوة .

٣ — الحقيقة الثالثة : عندما دبرت مؤامرة اغتيال ابن عرفة وإلقاء التهمة على أبي بكر لم يتخاذل ولم يضعف وإنما وقف بين الأعاصير موقف القوى الشامخ وعندما زحفت عليه الجماهير الغاضبة التي حركتها يد القننة مطالبة بقتله - وتخلّى عنه حسب روايات ابن الصغير حتى أقرب الناس إليه أبو اليقظان ونفوسة - تصدى وردّها عن أعقابها وثبت في مكانه حتى تمت المفاهمة وتنازل عن الإمامة غير آسف عليها وهو مؤمن أنها سوف تكون في يد أمينة . فاعتزل السياسة اعتزالاً كاملاً بعدها ولم يجر له فيها ذكر .

لقد كان الرجل قوياً في شخصه وخلقه ونفسه وإرادته وتفكيره متحكماً

في أعصابه ولو لم يكن كذلك لكانت له مواقف أخرى من الذلة والهوان .
٤ - الحقيقة الرابعة : عندما جاء أبو اليقظان من الشرق واختبره أسند
إليه القيام بأعمال هامة ولو كان الرجل ضعيفاً لترك له الأمر يتصرف دون
علمه كما يفعل أكثر الناس والخواشي مع الملوك والسلاطين ولكن
أبا اليقظان كان يعرض نتائج أعماله على أبي بكر مرتين في اليوم ولا دليل على
اليقظة والاهتمام والقوة أقوى وأوضح من هذا . ودارس التاريخ السياسي
قد يجد أئمة وملوكاً أو سلاطين يثقون في أشخاص فيتركون لهم تسيير
أعمالهم في الدولة مع المحاسبة أو مع عدمها ، ولكن ينذر أن تجد بينهم من
يطلب أن تعرض عليه النتائج مرتين في اليوم وأن يدق بابه مسئول مفوض
في الصباح والمساء ليذكر له ما عمل وما رأى وما يقترح ، فإذا لم يكن هذا
للسلك من أبي بكر هو الحزم والقوة فما أعرف كيف تكون القوة
ويكون الحزم !! .

هذه بعض الجوانب التي تظهر شخصية أبي بكر في تصرفه ومدى قوته
وحزمه في معالجة المشاكل وتصريف الأمور والوقوف بين الأعاصير التي
هيجها دعاة الفتنة ومدبرو المكائد . وإنني أحسب أنه كلما ازداد الإنسان
اطلاعاً ودراسة لتاريخ هذه الفترة كلما ازداد اقتناعاً بقوة أبي بكر ونزاهته
وحسن تصرفه إذا لم ينساق وراء ظاهريات الروايات التي نقلها المؤرخون
دون تمحيص ولكن بكثير من الشك والريبة لأنها كما قلت سابقاً رويت
عن الطرف الذي كاد لأبي بكر والدولة الرستمية .

أبو بكر وابن عرفة

كان ابن عرفة صديقاً حميماً لأبي بكر قبل أن يتولى الإمامة ، وزاد من صداقتهما وتوثق العلاقة بينهما تلك المصاهرة المزدوجة . وقد كانا يتشابهان في كثير من الأخلاق والصفات والميول . ويختلفان في قليل منها ، ومما كانا يتشابهان فيه : الجمال والمال والجود ورواية الأشعار والأدب والأخبار ، وحسن المسامرة والحديث ، والأخذ بنصيب من طيبات الحياة الحلال . ومما كانا يختلفان فيه أن محمداً بن عرفة كان محبباً للظهور ، مغرمًا بالمظاهر ، يهوى العظمة ، يصطنع الأتباع ، ويستكثر من الحواشي . ويسعى إلى قضاء مصالح الناس لقلته حول القلوب وتسير وراءه الجوع ، أما أبو بكر فقد كان يحب أن يعيش على النسق الذي عاش عليه في عهد أبيه ، يميل إلى البساطة ، ويتبعد عن المظاهر ، ولا يهتم بكثرة الحواشي والأتباع ، ولا يتخذ المواكب الحافلة التي تملأ الشوارع من ورائه بالهتاف والدعاء . تتحرك إذا تحرك وتسكن إذا سكن .

وكان ابن عرفة لا يرى من أبي بكر إلا الجانب الأدبي الشعري ولذلك فقد كانت نفسه تحدته بآمال طوال عراض عندما يصل أبو بكر إلى الإمامة . فقد كان يعتقد أنه يستطيع أن يملأ أوقات أبي بكر بالسمو الحلو والحديث العذب والشعر الرائق والأخبار الحسان وأن يشغله بالأدب وأخبار المـاضين عن قضية السياسة والحكم ومشاكله وبذلك يتاح له أن يتصرف في الدولة تصرف الوزير الخطير . وجعل يسعى إلى هذا برفق ويأمل أن يصل إليه بقليل من الأناة والتبصر .

وقد كان أبو بكر يرى في ابن عرفة صديقاً كريماً ، وصهرراً عزيزاً ومحدثاً لبقاً بارع النكتة لطيف المعشر عذب الحديث ، ولكنه كان يرى فيه أيضاً حبه للظهور وميله للسيطرة والتحكم فأبقاه في منزلته التي كان عليها قبل أن تصل إليه الإمامة - صهرراً كريماً ، وصديقاً حميماً ، ولم يمكنه من أى شيء من أعمال الدولة فلما وصل أبو اليقظان من المشرق عهد إليه أبو بكر بكثير من مهام الدولة التي كان ابن عرفة يتوق إليها فلم يصل ورأى أن مساعيه قد فشلت وأن آماله تحطمت وأن وسائل المصاهرة والصدقة لم تؤثر على تفكير أبي بكر السليم المتزن ، فامتلاً قلبه حقداً على أبي بكر وحسداً لأبي اليقظان وأظهر النعمة والنقد على أبي بكر وجهر بذلك وتحدث بين الناس وانضمت إليه أصوات من أتباعه ومريديه وأصوات تريد توسيع شقة الخلاف وإيقاع الفتنة بين الناس ، فاجتمع ناس من أصحاب الفكر والرأى ، ومن يحرص على مصلحة البلد وأهله للنظر في الموضوع وقرروا أنه يجب تدارك القضية قبل أن يفلت الزمام ، وأن تطفأ النار قبل أن تشتعل الفتنة . وبينما كان أولئك المصلحون من الأعيان والوجهاء ، في اجتماعهم ومشاوراتهم ودراساتهم للمشاكل من جميع وجوهها . بينما كانوا كذلك تحركت يد أخرى في الظلام ، لقد كانت هنالك يد إجرامية آتمة يهيمها أن تشتعل الفتنة ، وأن تتحطم الدولة وأن تفرق الجماعة . فلما رأت مساعي الصلح تبذل خافت من فشل المؤامرة فأسرعت تتخذ الخطوة التي لا يمكن أن تلتئم الجروح ، ولا تجتمع الصفوف بعدها فدبرت اغتيال ابن عرفة واتهمت به الإمام أبا بكر .

ونجحت المؤامرة في اغتيال ابن عرفة كما خططته نجاحاً كاملاً . كما أن أشاعة إلقاء التهمة على أبي بكر لقيت رواجاً كبيراً فصدقها البعض

وأحب البعض تصديقها ووقفت مجموعات من الناس على الحياد لم يصدقوا ولم يكذبوا وكذبت جماعة كبيرة تلك الأشاعة فوقفت إلى جانب أبي بكر .

ومع ذلك فإن الغاية التي سعت إليها المؤامرة قد تحققت . فقد وقع الخلاف وانقسمت الأمة على نفسها ، وأصبح البعض منها يستعد لضرب البعض . بل يبدو أن المؤامرة قد نجحت أكثر مما كان يطمع فيه مدبروها . وبالرجوع إلى ابن الصغير يتضح ذلك . اقرأ إن شئت قوله :

« ثم جلسوا حلقةً يذكرون أمرهم إلى أن بعث رجل يعرف بمحمود بن الوليد رجلاً من خاصته يتعرفون أحوال الناس وما هم عليه . فرجعت رسالته إليه فقالت له : قد حى الوطيس ، وإنما ينتظرون محرراً ، فصعد إلى أعلى موضع المدينة يعرف بالكنيسة ف ضرب الطبل فبادر الناس إليه وأمرهم بأخذ السلاح والزحف إلى أبي بكر » .

ومفهوم من هذه الصورة التي نقلناها عن ابن الصغير وعن صور أخرى وردت موزعة في الكتاب أن منظماً المؤامرة قد استعدوا لها استعداداً دقيقاً . وحسبوا لتأنيبها كل حساب ، فهم بعد اغتيال ابن عرفة وإلقاء التهمة على أبي بكر ، كانوا يخشون أن تنفضح المؤامرة وتعرف الحقيقة كما أنهم كانوا يخشون أن لا يجدوا الغضب الكافي على أبي بكر والنقمة عليه . ولذلك فقد انبثوا بين الصفوف واندسوا في المجتمعات وتوزعوا في المجالس . يؤججون النار ويبثون الحماس ضد أبي بكر ويشحنون النفوس سخطاً عليه . فلما علموا أن النار قد اشتعلت وأن نفوساً تهيات وأن الفتنة فتحت أبوابها تدعو إلى من يخوضها ظهروا على السطح وانكشفوا للناس وبادروا إلى قيادة الجاهل للدخول في حرب تراق فيه الدماء ويتعد الناس

بعضهم عن بعض وتموت فكرة الصلح والإصلاح في مهبها . فضرَبوا
الطَبول وجعوا الحاقدين وهجموا على أبي بكر .

أما أبو بكر فقد وجهت إليه - في الحقيقة على حال غفلة - طعناتان
حادثتان سببتا له شيئاً من الارتباك والذهول في أول الأمر ثم تغلب على ذلك
ووقف موقفه الذي يحتمه الوضع من غير أن يكون له في ذلك اختيار :

الطعنة الأولى : هي اغتيال ابن عرفة وهو كما يعرف القارئ الكريم
صديق قديم ثم هو أخو زوجته وزوج أخته ومهما يثر بينهما من خلاف فإنه
لا يصل إلى استباحة الدم ، ولا ينحدر بالسكريم إلى وهدة تدبير المؤامرة
والاغتيال ويبدوا أنه أصيب بنوع من الذهول عندما سمع لأول مرة باغتيال
ابن عرفة فلم تصدر عنه أية حركة لامن حيث الاستعداد لرد الفعل ولامن حيث
البحث والتحرى . ولعله كان يفكر فيما بينه وبين نفسه ضمن عساه يقدم على
اغتيال ابن عرفة وهو رجل محبوب لا ينقم عليه أحد . وقبل أن يستفيق
أبو بكر من الذهول والحيرة والارتباك فاجأته المؤامرة بالطعنة الثانية
وكانت أكثر إبلاماً وأشد إيلاء من الأولى وأبعد من أن تخطر على بال
إنسان وهكذا لم يستفك من حيرته ؛ جاءت الأنباء تنممه باغتيال ابن عرفة وتلقى
عليه اللوم وتطالب بالتأثر منه ذلك أن المؤامرة في الواقع إنما كانت
تستهدف أبا بكر والدولة الرستمية ولم يكن ابن عرفة مقصوداً لذاته وإنما
كان الضحية المناسبة التي اختارتها المؤامرة لتحقيق أهدافها .

فلما بلغ خبر الاتهام أبا بكر بدأ يستفيق ويدرك موقفه الحرج وبدأ يفكر
في الخطوة التي ينبغي له أن يخطوها ولسكن المؤامرة سارت إلى تحقيق نتائجها
بأسرع مما كان يتوقع أبو بكر وبقية الناس ، وقبل أن يحضر العقل الواعي
والتفكير القويم .

فشغلت الناس بإشغال الفتنة وإعلان الحرب والهجوم على أبي بكر وقد استعد أبو بكر لذلك الهجوم وردّه .

لقد نألم أبو بكر من اغتيال ابن عرفة وتألّم أكثر من ذلك من نسبة الاغتيال إليه ولا شك أن هذه التهمة قد سببت له حرجاً كبيراً مع أهله فخرج موقفه مع زوجته وأم أولاده ، وتخرج موقفه مع أخته زوجة ابن عرفة ، وأم أولاده ، وظهر في صورة مجرم في نظر أولاده حيث يروونه متآمراً باغتيال خالهم ، كما تظهره المؤامرة في موقف خال مجرم يتآمر على اغتيال أبيهم فهو بالنسبة للأسرتين أب يقتال خال أولاده وخال يقتال أب أبناء أخته كما أن زوجته ترى فيه قاتل أخيها وأن أخته ترى فيه قاتل زوجها ، وكل هذه الصور تقع منه دون مبرر معقول .

وصبر أبو بكر على آلامه وجروحه - ولعل من أشدها على نفسه شك أبي اليعتقان ونفوسة فيه حتى اعتزلوه - حتى خيب آمال دعاة الفتنة ومدبري المؤامرة ، فلما جاء الخلق يطلبون منه اعتزال الإمامة لتوضع في أيدي أئمة نزعى أمانة الله في عبادته سارع إلى التخلي عنها غير آسف عليها واعتزل لنفسه وعاش بقية عمره معتزلاً لدنيا الناس وضجيجها فلم يعرف عنه خبر .

من القاتل ؟

لاشك أن المصادر التي استقى منها ابن الصغير - وهي شفوية متحيزة - والمصادر التي استقت من ابن الصغير إنما توجه تهمة تدبير مؤامرة اغتيال ابن عرفة إلى أقارب أبي بكر وإلى أبي اليقظان خاصة أما تهمة تنفيذ المؤامرة والقيام بالاغتيال فهي تنسبها إلى أبي بكر نفسه . وهي لتبرير هذه التهمة تخلق الأسباب والمبررات التي تجعل نسجة هذه الجريمة إلى الإمامين العظيمين ربما تقبلها بعض العقول وراحت تنسج خيوطاً مأخوذة من خيوط قصة نسكة البرامكة على يد الرشيد مع فوارق طفيفة .

وفي هذا الفصل أود أن أناقش مع القارئ الكريم موضوع المؤامرة فمن تهتم بتنفيذها ؟ .

لأنني أيضاً أريد أن اعتمد على ابن الصغير في هذا الموضوع وسوف أناقشه بملاحظات وظروفه ومنطقية الأحداث وطبيعة وقوعها ، والقارئ الكريم عندما يقرأ ما كتبه ابن الصغير عن تلك الفترة لا يمكنه من أول وهلة إلا أن يجعل في قفص الاتهام مجموعة من الأفراد ومجموعة من التكتلات . وتتغنى طبيعة المناقشة أن أملك هذا المملك فأضع في قفص الاتهام مجموعة من التكتلات التي بدا لها ارتباط بالوقائع ومجموعة من الأشخاص الذين ورد ذكر أسمائهم وبعض تصرفاتهم في تلك الفترة المخرجة .

ونستطيع حسبما ورد في رسالة ابن الصغير أن نستحضر الأسماء التي ذكرت حينئذ ونسب إليها نوع من التصرف في فترة إمارة أبي بكر وهي :

١ - عبد العزيز بن الأوز .

٢ - محمود بن الوليد .

٣ - خلف الخادم .

٤ - أبو محمد الصيرفي .

٥ - ابن الواسطي .

٦ - ابن وردة .

٧ - محمد بن مسالة .

يضاف إلى هذا الكشف بالطبيعة ثلاثة أسماء هي أبو اليقظان وأبو بكر وابن عرفة . أما بالنسبة للتسكتلات والأحزاب حسبما ورد في رسالة ابن الصغير فتستطيع أن تذكر ما يلي :

١ - الرستمية .

٢ - الجند .

٣ - العجم .

٤ - العرب .

٥ - نفوسة .

فأي حزب من هذه الأحزاب أو تسكتل من هذه التسكتلات كان يعمل لهذه المؤامرة وأي زعيم من أولئك الزعماء كان يخطط لها ؟ وينظمها في الخفاء ؟ ويقودها إلى نتائجها التي يقدرها ؟ ولأي حزب من هذه الأحزاب يعمل ؟ .

حسب النتائج التي وصلت إليها بعد الدراسة والبحث ومناقشة الأحداث

ومتارنتها بالمظار إلى الظروف العامة لتلك الفترة القصيرة رأيت أنه ينبغي استبعاد بعض الأسماء من الأول وهم :

١ - ابن عرفة . فلا داعى لذكر نهمه بأنه قتل نفسه أو انتحر لأنه لا يوجد لدينا أى باعث له على ذلك ثم إن الموضوع الذى قتل فيه غير المكان الذى وجد فيه وهذا وحده يكفى لإبعاد تهمة الانتحار من الموضوع .

٢ - أبو بكر وأبو اليقظان . وقد أوضحت فى الفصول السابقة الأسباب التى تدعو إلى إبعاد التهمة عنهما .

٣ - عبد العزيز بن الأوز . هذا رجل رفع صوته بالمعارضة والإنكار فى أول البيعة ثم سكت بعد ذلك . يصف ابن الصغير هذا الرجل فيقول : « له فقه بارع وله رحلة نحو المشرق ولكنه سفيه اللسان خفيف العقل ، يزهدون مجالسهم عن حضوره ويستغفون عنه فى معضلات مسائلهم » . ورجل هذه صفاته لا يستطيع أن يدبر مؤامرة ولا أن يقوم بتنفيذها ولا أن يكتم أسرارها إذا علم بها ولذلك فقد استبعدته .

٤ - الصيرفى والواسطى . وهما تاجران غنيان صاحباً أموال وقد زادا من هيب الفتنة بعد أن وقعت . واقترحا على الجند والعرب بناء حصن ، وتمهدا بالنفقات اللازمة ، ويبدو أن دورهما فى الموضوع لا يتجاوز الاستحسان والتشجيع ، وأغلب هذا النوع من الناس يتصفون بالإحجام والتردد وعدم الإقدام على أعمال خطيرة قد تؤدى إلى فقدان الثروة وانعدام الراحة .

٥ - محمد بن مسالة . وهو رجل له مركز ، وله مال ، وله معجبون لم يرد ذكره قبل أو إبان اشتعال الفتنة ، فلما وقعت المعارك بين أبى بكر

وأصحاب الفتنه ولزم أبو بكر داره لا يأمر ولا ينهى دخل محمد بن مسالة إلى المدينة وخيل إليه أنه ربما اختاره الناس للحكم ولا يتجاسر هو إلى أن يدعرك إلى ذلك وإنما اكتفى بإصدار بعض الأوامر والنواهي فلما تنازل أبو بكر ودعا الناس إلى أبي اليقظان تناكأ قليلاً ثم استجاب ودخل فيما دخل فيه الناس ، ولو كان لهذا الرجل ضلع في المؤامرة لما فرط في نتائجها بهذه السهولة . وهكذا لا يبقى بين أيدينا في قصص الاتهام غير ثلاثة أشخاص هم : خلف الخادم ، وابن وردة ، ومحمود بن الوليد .

٦ - خلف الخادم . قال عنه ابن الصغير ما يأتي : « وكان قد قبض العرب مولى من مؤالى الأغلب يقال له خلف الخادم ، وكان له أموال عظيمة فأعان القوم بنفسه وماله . » ويقول بعد أسطر : « وكانت العرب والجند إذا غلبت على العجم أخرجتها من بعض ديارها في حالها ، فقال لهم خلف الخادم : وما تصنعون شيئاً . إذا غلبتم على شيء من ديارهم فأضرموه ناراً » .

هذه الأسطر القليلة تكشف عن أخلاق هذا الرجل وغلظ طبعه وموت حسه ، وما درب عليه من محبة القتل والتخريب ، مثل هذا الرجل يمكن الاستعانة به في جريمة تقترب ؛ إذ ليس له دين يحجزه وليس له خلق يعصمه وليس له كرامة يصونها ويقدها فهو من الذين يفرحون للقتل وما تجره من ويلات ونكبات ويسر للحرب وما تجره من تخريب ودمار ويشقى شيئاً من تحليل حقه أن يرى الدماء البشرية تسيل ثم هو من ناحية أخرى قد يستفيد مما يسرقه أو يسلبه أو يغنمه في هذه الأحوال .

وأمثال هذا الرجل - في نظري - ليس له تلك العقلية التي تستطيع أن تحكم تدبير المؤامرة وتخطيطها بدقة ولكنه قد يفرح أن يكون آلة تستخدم

في هذه الأغراض وقد يحرص على تنفيذ ما يكلف به في هذا المجال بدقة وإتقان وأنا لا أستبعد مطلقاً أن يكون للرجل ضلع كبير في تنفيذها لا في تخطيطها . فليس من الصعب عليه أن يفتعل خلوة بابن عرفة ثم يجهز عليه ويتم بقية العملية كما وصفت تاركا آثار الدم عمداً حسبما خطط له لتوجه الشبهة إلى أبي بكر بدلاً منه .

٧ - ابن وردة . وهو حسب ما جاء في رسالة ابن الصغير رجل من العجم له مال وجاه شجاع قوى ، ولا يستبعد من مثله أن يتآمر وأن يستغل الفتن أو أن يسرق نتائجها ، والصورة الواضحة في ذهني عن هذا الرجل أنه لم يكن من مدبري المؤامرة ولكنه فرح بوقوعها واجتهد في أن يزيد من ههنا ليستغلها كما قدر لنفسه لاسيما وقد ذكر ابن الصغير أن العجم - وهو أحد قادتهم - كانوا وقفوا على الحياد فلما وقعت الحرب وقدروا أن الفريقين معاً قد ضعفا هجموا على أساس أن يقضوا على فريق أبي بكر وفريق محمود بن الوليد لينتصر لهم الأمر كما قال ابن الصغير وإليك كلمة ابن الصغير في تصويره لمحاولة العجم بسرقة نتائج المؤامرة : قال « فلما رأت العجم ما نزل بين الفريقين من السباب والقتل قالوا قد أمكننا في العرب والهند ومواليهم وأتباعهم ما نريد فقدموا بنا مع اشتغالهم بأنفسهم حتى ثب على طرف المدينة فبقتل مقاتليهم ونحزب ديارهم ونميل على سائرهم فنهلكهم فيصفوا لنا البلد والسلطان ، وقد وقع بينهم وبين سلطان البلد من الفتق ما لا يرتق أبداً » .

٨ - محمود بن الوليد . لمعرفة دور هذا الرجل ينبغي أن نعود إلى ابن الصغير لننقل عنه الصورة الآتية : قال ابن الصغير : « ثم جلسوا حلقاً حلقاً يذكرون أمرهم إلى أن بعث رجل يعرف بمحمود بن الوليد رجلاً من خاصته يتعرفون

أحوال الناس ، وما هم عليه ، فرجعت رسله إليه وقالت قد حى الوطيس ،
وإنما ينتظرون محركا ، فصعد إلى أعلى موضع المدينة يعرف بالكنيسة فضرب
الطبل فبادر الناس إليه ، وأمرهم بأخذ السلاح والزحف إلى أبي بكر .

هذه الصورة الصغيرة التى وضعها ابن الصغير لأحداث تلك الفتنه
تكشف الأيدى التى خطت للمؤامرة واستغلتما أسوأ استغلال ، ولو أراد
القارئ أن يحلل الأحداث لانتضح له ما بلى :

كانت هنالك رأس مدبرة مستترة لأحداث تلك المؤامرة ولا يبعد
أن تكون تلك الرأس هى محمود بن الوليد ، محمود بن الوليد رجل ذكى
طموح يتوود إلى ابن عرفة ويخدمه ويعمل على توسيع شقة الخلاف بينه وبين
أبي بكر بما يسكه في أذنه من أنه خلق للإمارة والزعامه وأنه لولا جور
الزمان لكان بالإمامة أولى وأحق . وعندما اشعد الخلاف بين أبي بكر
وابن عرفة كان حريصاً على أن يشهد حتى تنفصم العرى ، ربما كان يأمل
أن ينتصر ابن عرفة في حركة عنف فيكون هو إلى جانبه وربما كان يبنى
نفسه بمناصب كعبرة ، فلما تحرك الناس للمصالحة بين أبي بكر وابن عرفة
وبدأت الاجتماعات خشى من انفاق الكلمة ورأى في ذلك انهيار لكل
ما بناه وتكديباً لكل ما قام به ، ففكر بسرعة وعرف كيف يكيد كيداً
يستحيل بعده أن تتفق الكلمة وهكذا دبر اغتيال ابن عرفة في سر وألقى
التهمة على أبي بكر وضرب الرجلين بحجر واحد . وانطلقت المكيدة على
الناس . وكان في قرارة نفسه حتى بعد تنفيذ الاغتيال يخشى فشل الخطة
وافترض الأمر ، وانكشف القائلين بتنفيذ المؤامرة كما كان يخشى أن
لا يصدق الناس أن أبا بكر ينحدر إلى هذه الوهدة ويرتكب هذه الجريمة
التي هو في غنى عنها ، وقد بقي محمود بن الوليد مستتراً خفياً وكان أصحابه

منبئين في الناس يستعظمون الجريمة ويشحنون نفوس الناس بالغضب والحقد ويعدونهم للمطالبة بأخذ الثأر . ولم يظهر إلى الميدان إلا بعد أن بعث أعوانه سراً ينظرون أسر الناس فلما رجع الأعوان وأكدوا له أن الحيلة قد انطلت وأن المسكيدة نجحت وأن الناس في عياج عظيم وأنهم لا ينتظرون إلا رأساً للفتنة تقودها ، وثب بأسرع ما يمكن وتولى قيادة الجماهير الغاضبة فذهب إلى أعلى مكان بالمدينة ، وضرب الطبل ثم أمر الجوع بالتمسك والهجوم على أبي بكر فظهر على حقيقة زعيم الفتنة ، هكذا تولى القيادة بعد أن تأكد أن تخطيطاته نجحت وأنه أصبح الشخصية الأولى في الميدان ، فابن عرفة الذي كان يحبه قد قتل ، وأبو بكر لا يلبث أن يُقتل ، وهو قد تولى الزعامة بأسرويهي فيطاع ، ولم يكن يدور في خله أبدأ أن أبا بكر بعد هذا كله سوف يصمد ويرد عنه بعنف ويفلق أمامه السبيل للوصول إلى كرسي الحكم والإمارة .

كان محمود حسبا يبدو متصفاً بالدهاء ودقة التدبير ، وكان يوجه غيره للعمل ولا يحب أن يظهر إلا حينما يهتد كد من نجاح ظهوره تأكداً كاملاً . أما خلف الخادم وقد عاش فترة من عمره جندياً ففيه من شجاعة الجنود وتهورهم واندفاعهم الشيء الكثير ، وهذا ما يحتاجه محمود ولذلك فقد دعا إليه خلف ثم نفخ في أذنه وكال له المديح والإطراء ولوح له ببعض المناصب والوعود المعسولة ثم ألقى إليه بتخطيط المؤامرة وطلب منه تنفيذها في حرص واحتراس عظيمين ، ولم يكن ذلك عسيراً عليه فإن العلاقة بينهم وبين ابن عرفة كانت وطيدة يسهل معها جره إلى أي مكان بأي دعوة . وصورة الحادثة في ذهني حينما علم بالجهود التي تبذل بين أبي بكر وابن عرفة خاف أن يصطليح الرجلان فدبر لاغتيال ابن عرفة وإلقاء التهمة على أبي بكر ثم استعان على التنفيذ

بخلف الخادم أو بغيره أو به وبغيره وعندما أخبره القائم بالاغتيال بإتمام المهمة أوفد إلى قصر ابن عرفة أن سيد القصر ذهب في ذلك اليوم إلى الإمام ، وأن ابطاءه وعدم عودته أمر يثير الاحتمام والقلق . واستطاعوا فعلاً أن يشحنوا نفوس أهل القصر بالقلق والخوف ، وهكذا ذهبوا يسألون فلم يجدوا جواباً ، وفي الصباح استطاعوا أن يملأوا النفوس بالشك والريبة في الإمام ، ثم جعلوا يبحثون عنه كما لو كان طفلاً صغيراً . وتعاون الجميع على البحث وكان القملة قد مهدوا الطريق فتركوا آثاراً واضحة تدل على الجريمة ولربما قادوا الناس إلى مقتفاء تلك الآثار دون وعى أو شعور من الناس حتى أوصولهم إلى مكان الجثة وأذاعوا أن أبا بكر هو الذى فعل هذا . واقتنعت تلك الجماهير التى تشترك في هذه التمثيلية ، والجماهير حين تغضب تفقد التفكير السليم والمنطق القويم والسيطرة على المشاعر .

أما موقف أبى بكر من هذه الحادثة فقد كان فيما يبدو كما يلى :

جاءه بعض أهل ابن عرفة يسألونه عنه فأجابهم بأنه ليس معه ولم يهتم للموضوع فإن غياب رجل عن بيته يوماً أو ليلة ولا سيما عندما يكون الرجل ذا أعمال كثيرة موزعة ، وأصدقاء مخلصين في كل مكان ومحبة في كل قلب ، فإن غياب هذا الرجل لا يستدعى القلق ولا يبعث على البحث والشك . إن هذه الليلة ليست أول ليلة يغيب فيها ابن عرفة عن بيته وقد كان يختار للوفادة إلى الأقاليم منذ زمان أفلاح . وفي الصباح انبعث الناس يبحثون عنه كما لو كان طفلاً صغيراً ، وربما كان أبو بكر يعجب لعصر فهم هذا ، ويسخر في نفسه منهم ، ولم يلبث أن سمع بالنسكة وبلغته الأخبار بأن ابن عرفة وجد مقتولاً فتولته الدهشة ، وقيل أن يستفيق وصلته أنباء أخرى

تلقى عليه تهمة اغتيال ابن عرفة ، وكانت دهشة أخرى وحيرة . وقبل أن يستفيق من المفاجأة الثانية سمع الطبول تفرع ثم علم أن الجوع الهادرة الساخطة مقدمة عليه تريد رأسه . فوثب إلى سلاحه وانضم إليه بعض من كان قريباً ووقعت المعركة الأولى فثبت فيها أبو بكر ولم يستطع محمود ابن الوليد أن يحقق شيئاً وتكررت الوقائع ولكن أبا بكر ثبت مع القلة الذين وقفوا معه وبرغم أن المكيدة انطلت على أغلب الناس حتى أبى اليقظان فاعتزلوه . لا شك أن كل فرد من الأفراد الذين وجهنا إليهم التهمة في أول هذا الفصل إنما كان يعمل لإحدى التكتلات أو الأحزاب التي ذكرناها سابقاً ، أو أن كل واحد منهم إنما كان يمثل جهة معينة .

فن أي التكتلات كان محمود بن الوليد وخلف الخادم ؟ أما خلف الخادم فقد كان من الجند بلا شك وقد صرح بذلك ابن الصغير فلا داعي لمزيد من البحث . أما محمود فإن المصادر التي بين أيدينا لم تصرح من أي التكتلات هو ، ولذلك فلا مناص من الاستنتاج .

لا شك أن محمود ليس من الرسمية وإلا لما قام بعمله ذلك ، وليس من نفوسة لأن نفوسة قد اعتزلت الفتنة فلم تشارك فيها إلا أخيراً حين أضرم أتباع محمود وخلف النار في منازلهم ، وليس من العجم لأن العجم وقفوا موقف المتفرج عندما قاد محمود الجماهير إلى قتال أبي بكر في الهجمة الأولى ، وعندما كان ملتجئاً في المعركة كان العجم ينظرون إلى أقوى الفريقين حتى ينقضوا عليه من الخلف ليسحقوها معاً ويخلوهم المكان ، فلم يبق إذن إلا أن يكون من العرب أو الجند . واشترك العرب والجند في المعارك وتأزرهم في جميع المواقف يدل على أن محموداً كان من العرب وأن خلفاً كان من الجند

فاشترك الرجلان في عمل واحد وكونت الطائفتان تكملاً واحداً يشبه أن يكون حزباً وقد بقي هذا الحزب يعمل أولاً بأسلوب العنف حتى فشل فلما فشل بطريقة العنف استمر يعمل بالوسائل الأخرى ، وقد انقضى عهد أبي بكر ثم جاء عهد أبي اليعتقان ودام نحو أربعين سنة وكان هذا الحزب لا يزال يعمل ولما جاء أبو حاتم نشط الحزب أيضاً وكان يعمل بجِد وحرص ، ويكفي للدلالة على هذا أن نقطف من ابن الصغير ما يلي :

« وكان مشايخ البلد من غير الإباضية قد استولوا عليه - أي أبي حاتم - منهم رجل يعرف بأبي مسعود وكان كوفياً فقيهاً بمذاهب الكوفيين ومنهم شيخ يعرف بأبي دنون وكان على مثل صاحبه من الفقه الكوفي ومنهم رجل يعرف بعلمان بن علوان ولم يكن من أهل الفقه ولكن كانت له رئاسة في البلد ومحبة عند العوام وكانوا هؤلاء قد طمعوا أن يبيدوا خبر الإباضية ويطفئوهم » . ولا شك أن ابن الصغير وهو المؤرخ الأمين قد أخذ كثيراً من الأخبار عن أفراد من هذا الحزب أو التكتل وقد امتد تكتله كما رأيت إلى نهاية خلافة أبي حاتم ، يستعلن أحياناً ويختفي أحياناً أخرى يعمل في ميدان المجاهدة والتجدي ، ويعمل في ميدان البحث والمناقشة والفكر . ويعمل في ميدان المؤامرة والكيد .

بقي لي أن أقول للقارئ الكريم إنني في هذا التحليل قد جارية رواية ابن الصغير واعتمدت عليها ، أما لو أردنا أن نعتمد رواية الدرجيني فإن قضية المؤامرة والاعتقال تبعد عن بيت الإمارة كما ذكر أستاذنا الفاضل الشيخ بيوض - حفظه الله ورعاه - إذ أن الدرجيني يذكر أن خلافاً شديداً وقع بين أبي بكر وابن عرفة أفضى إلى مشادة وحمل سلاح ، ثم أنه وقع اغتيال ابن عرفة

من يد مجهولة . فاشتد الشقاق حتى وصل أبو اليقظان فاجتمعت عليه جميع الأطراف بعد عديد من المساعي ، ومهما كانت التحليلات فإن الذي أستبعده كل الاستبعاد أن يتهم أبو اليقظان بتدبير المؤامرة وأن يتهم أبو بكر بتنفيذها وهما أقدر على قتل ابن عرفة إذا استحققت القتل شرعاً وأنزه وألطف من أن يلوثا أيديهما بدماء بريئة . والله أعلم بحقيقة الوقائع ، ولا يعلم الغيب إلا الله . وإني أستغفر الله تعالى إن كان اجتهادي خطأ ، فما بحثت إلا عن الحقيقة وما أردت إلا الصواب والتوفيق من الله تبارك وتعالى .